
سيمون دو بوڤوار
الصور الجميلة

الصور الجميلة

الطبعة الأولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧

سيمون دو بوفوار

الصور الجميلة

رواية

ترجمة: عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

قالت جيزيل دوفرين : « إن اكتوبر هذا .. شهر استثنائي » ، فيوافقون، ويبتسمون ، وتسقط من السماء الرمادية الزرقاء حرارة صيفية – مـــا الذي لا أملكه مما يملك الآخرون؟– وتلامس أنظارَهم الصورةُ الكاملة التي نشرتها مجلتا « بلازير دوفرانس »[1] و « فوتر ميزون »[2] : المزرعــة المشتراة بلقمة خبز – لنقل، توضيحاً، لقمة خبز مصنوع بالزبدة والبيض – والتي حوّلها جان – شارل الى مقصورة بما يساوي ثمــن طنّ من الكافيار . (وقد قال جيلبير : « حبذا لو كان الأمر قاصراً على مليون فرنك فقط » !) الورود المعرشة على جدار حجري، الأقحوان ، زهور النجمة ، الأضاليا التي وصفتها دومينيك بأنها « أجمل مـــا في « إيل دوفرانس» من أضاليا » ، وهناك البارافان والأرائك الزرق والبنفسجية – أية جرأة ! – التي تتميز عن خضرة عشب الحديقة ، والثلج الذي يرنّ في الكؤوس ، وهودان الذي يقبّل يد دومينيك التي تبدو دقيقة جداً في بنطالهـــا الأسود وقميصها الفاقع ، وشعرها المصفرّ الحائر بين الشقرة والبياض ، فكأنهـــا في الثلاثين لمن يراها من ظهرها «ليس ثمة من يُحسن مثلك يا دومينيك استقبال الضيوف » (في هذه اللحظة بالذات ، في حديقة أخرى، مختلفة تمام الاختلاف، شبيهة تماماً ، هناك من يقول هذه الكلمات ، وتستقرّ البسمة نفسها على وجــــه آخر : « ما أروعه يوم أحد ! » لماذا تراني أفكر بهذا ؟)

كان كل شيء ممتــازاً : الشمس والنسيم ، المشواة ، وقطع اللحم السميكة ، والخضار ، والفاكهة ، والخمور . وقـــد روى جيلبير حكايات أسفار وصيد في

---

١ - تعني « بهجة فرنسا » . (هامش المترجمة)
٢ - تعني « بيتك » . (هـ.م.)

كينيا ، ثم استغرق في لعبة الأخشاب هذه اليابانية التي كان باقياً عليه أن يضع ست قطع منها في مواضعها ، واقترحت لورانس « تجربة المهرّب » . ولقد تحمّسوا ، وهم يعشقون أن يندهشوا بأنفسهم وأن يضحك بعضهم على البعض الآخر . لقد أجهدت نفسها كثيراً ، ولذلك فهي تحسّ نفسها الآن مُتعَبة ، إنني دورية .

كانت لويز تلعب مع أولاد عمّها في جوف الحديقة ؛ وكانت كاترين تقرأ قرب المدفأة حيث تشتعل نارٌ خفيفة : إنها تشبه جميع الفتيات الصغيرات السعيدات اللواتي يقرأن ، متمدّدات على سجادة. « دون كيشوت » ، الاسبوع الماضي ، « كانتان دورفار » ، ليس هذا ما يحملها تبكي في الليل ، فماذا إذن ؟ كانت لويز منفعلة جداً : ماما ، إن كاترين ملتاعة ، فهي تبكي في الليل . إن الأساتذة يروقون لها ، ولها صديقة صغيرة جديدة ، وهي في صحة جيدة ، والبيت في مَرَح .

وقال دوفرين :

– ما زلت تبحثين عن شعارات للدعاية ؟

- يجب أن أقنع الناس بأن يغطّوا جدرانهم بألواح من خشب .

هذا مريح؛فحين تغيب،يظنّ الناس إنها تبحث عن شعارات للدعاية.وكانوا يتحدثون حولها عن محاولة انتحار جان تكسييه. وكان في يد دومينيك اليسرى سيجارة ، وكانت يدها اليمنى مفتوحة ومرتفعة كأنما كانت تتوقع من يقاطعها؛ وقد قالت بصوتها المتسلط ذي الجرْس الخاصّ : « إنها ليست على قدر كبير من الذكاء ، فزوجها هو الذي صنع لها مهنتها ، ولكن مع ذلك ؛ فإن التي تكون واحدة من النساء الأكثر اشتهاراً في باريس ، لا تتصرف تصرّف الخياطات ! »

وفي حديقة أخرى ، مختلفة كل الاختلاف ، شبيهة تماماً ، قال أحدهم : « دومينيك لانجلوا : إن جيلبير مورتيه هو الذي صنع لها مهنتها . » وهذا غير عادل ، فهي قد دخلت الإذاعة من الباب الصغير ، عام ١٩٤٥ ، ووصلت بقوة قبضتيها وهي تعمل كالحصان ، وتدوس على من كانوا يضايقونها . فلماذا يلذّ لهم الى

هذا الحدّ أن يحطّم بعضهم بعضاً ؟ وهم يقولون كذلك ، وهذا ما تفكر به جيزيل دوفرين ، إن أمي قد استولت على جيلبير بدافع المصلحة : فلولاه لما استطاعت أن تنعم بهذا البيت وبتلك الرحلات ؛ فليكن ، ولكنّ ما جلبه لها إنما هو شيء آخر ؛ لقد كانت، رغم كل شيء ، حائرة مضطربة بعد أن هجرت أبي (كان يتيه في البيت كروح معذّبة، فرحلت بقسوة ما أشدها حالما تزوجت مارت) ، وهي بفضل جيلبير إنما أصبحت هذه المرأة الواثقة بنفسها إلى هذا الحدّ . (بالطبع ، يمكن القول ...) .

وعاد هوبير ومارت من الغابة وعلى ذراعيها باقات هائلة من الزهور. وكانت مارت تمشي بخطوة جذلى ، مرتدّة الرأس إلى خلف ، وعلى شفتيها بسمة مسمّرة : قدّيسة ، سكرى بحبّ الرب الفرح ، ذلك هو الدور الذي تمثله منذ وجدت الإيمان . وعادا إلى مكانهما على الوسائد الزرق والبنفسجية ، وأشعل هوبير غليونه وعاودته بسمته ، بسمة المشلول ، وراحته الجسدية . إنه حين يسافر يضع نظارة سوداء : « إنني أعشق السفر متنكّراً » . طبيب اسنان ممتاز يدرس بدقة رهان سباق الخيل . إنني أفهم أن تكون مارت قد اصطنعت لنفسها ألواناً من التعويضات .

قالت دومينيك :

– إنكم في أوروبا لا تجدون في الصيف شاطئاً واحداً تستطيعون أن تتمدّدوا عليه... أما في البرمود ، فهناك شواطيء كثيرة ، تكاد تكون خالية، ولا يعرفكم فيها أحد .

فقالت لورانس :

– إنه ، ولا عجب ، الثقب الصغير العزيز .

وسألت جيزيل :

– وتاهيتي ؟ لماذا لم تعودا الى تاهيتي ؟

– كانت تاهيتي عام ١٩٥٥ شيئاً لذيذاً . أما الآن ، فهي أسوأ من سان – تروبيز . إنها تافهة إلى حدّ ...

على بعد عشرين عاماً . كان أبي يقترح فلورنسا وغرناطـة ؛ فكانت تقول : « الجميع يقصدونها ، فهما تافهتان إلى حدّ ... » كانت تفضّل أن نسافر ، نحن الأربعة ، في السيارة . كان هو يتنزه بدوننا في أيطاليا واليونان ، وكنا نبيت في الأمكنة الباذخة ، أقصد التي كانت تعتبرها دومينيك في ذلـك الوقت باذخة . أما الآن ، فهي تقطع المحيط لتأخذ حماماتها الشمسية .

أما في عيد الميلاد ، فإن جيلبير سيصطحبها لقضاء السهرة في بعلبك ...

وقالت جيزيل :

– يبدو أن في البرازيل بلاجات رائعة ، خالية . وبإمكان الإنسان أن يقفز إلى برازيليا . كم أود لو أرى برازيليا !

وقالت لورانس :

– آه ! لا ! تكفي حتى الآن الشقق المتشابهـة في ضواحي باريس ، كم هي متعبة ! فكيف الحال مع مدينة بكاملها على هذا النسق ؟

فقالت دومينيك :

– إنك كأبيك ، من دعاة الماضي .

قال جان – شارل :

– ومن ليس كذلـــك ؟ إن الناس في عصر الصواريخ والآلية لا يزالون يحتفظون بعقلية القرن التاسع عشر .

فقالت دومينيك :

– هذا ليس شأني .

قال جيلبير بلهجة مقتنعة (أو بالأحرى مفخمة : فهو يقف دائماً على مسافة ما من كلمته) :

– إنك أنت استثنائية في كل شيء .

– على كل حال ، فإن العمال الذين بنوا المدينة هم من رأيي : إنهم لم يريـدوا أن يهجروا بيوتهم الخشبية .

فقال جيلبير :

– لم يكن لهم الخيار قط ، يا عزيزتي لورانس . فإن ايجارات برازيليـا هي فوق مستوى وسائلهم .

ودوّرت بسمةً خفيفة فمه ، كما لو كان يعتذر من لهجة تفوّقه .

وقال دوفرين :

– إن برازيليا قـــد تُجُووزت اليوم . فهندستها ما تزال تلك الهندسة التي يملك فيها السقف والباب والجدار والمدخنة وجوداً متميزاً . إن ما يُسمى الآن إلى تحقيقه إنما هو المنزل التركيبي الذي يكون كل عنصر فيـــه كثير التعادل : السقف يمتزج بالجدار وينساب في وسط الفناء الداخلي .

كانت لورانس مستاءة من نفسها ؛ لقد نطقت طبعاً بحماقة . هـــذا نتيجة التحدث عـن أشياء لا يعرفها المرء . لقـــد كانت الآنسة هوشيه تقول : « لا تتكلموا عما لا تعرفونه » . ولكن هذا يعني أن المرء لن يفتح فمه أبداً . وكانت تصغي بصمت الى جان – شارل الذي كان يصف مدينة المستقبل . وكان يفتنها ذلك ، من غير أن تعرف تفسيراً لهذا ، تفتنها تلك العجائب القادمة التي لـــن تراهـــا أبداً بعينيها . لقد فتنها أن تعلم أن إنسان اليوم كان يتجاوز ببضعة سنتمترات إنسان القرون الوسطى ، الذي كان هو نفسه أطول من إنسان مـــا قبل التاريخ . وإن من حظهم أن يستطيعوا أن يتحمسوا على هـذا النحو . إن دوفرين وجان – شارل يناقشان مرة أخرى ، وبالحميّا نفسها دائماً، أزمة هندسة البناء .

كان جان – شارل يقول :

– يجب إيجاد اعتمادات ، ولكن بوسائل أخرى . والعدول عن قوة الاقناع معناه السقوط خارج التاريخ .

ولم يجب أحد ؛ ثم ارتفع في الصمت صوت مارت الملهم :

– حبذا لو كانت جميع الشعوب توافق معاً على نزع السلاح ! هـــل قرأتم الرسالة الأخيرة لبولس السادس ؟

فقاطعتها درمينيك بنفاد صبر :

- لقد أكد لي أشخاص مطلعون تمـام الاطلاع أن الحرب إذا نشبت ، فان عشرين عاماً ستكون كافية لتجعل الانسانية تجد نفسها في المرحلة التي هي عليها اليوم .

ورفع جيلبير رأسه ، ولم يكن باقياً له إلاّ أربع قطع من الخشب لوضعها في مواضعها :

- لن تقع حرب . فإن المسافة بين البلدان الرأسمالية والبلدان الاشتراكيـة لن تلبث طويـــلا حتى تمّحي . لأننا الآن نعيش ثورة القرن العشرين الكبرى، والإنتاج هو أهمّ من التملك .

واذن فما جدوى إنفاق هذا المال كله في التسلح ؟ هكذا تساءلت لورانس . ولكن جيلبير يعرف الجواب ، وهي لا تريد بعد أن تسمح بأن يُستهزأ بهـــا . والحق أن جان - شارل قد أجاب : إننا ، من غـــير القنبلة ، سنسقط خارج التاريخ . فماذا يعني هذا تماماً .؟ سيعني بكل تأكيد كارثة . وبدت على الجميع هيئة الحيرة والتململ .

والتفت جيلبير بودّ نحوها :

- ستأتين يوم الجمعة . إنني أريد أن أسمعك مجموعتي الجديدة من آلات انتاج الصوت . Installation haute fidélité .

قالت دومينيك:

- الآلة الشبيهة بآلة كريم والكسندر أمير يوغوسلافيا .

فقال جيلبير :

- إنها حقاً اعجوبة . إن من يسمعها لا يستطيع بعدُ أن يسمع موسيقى من أية آلة عادية .

قالت لورانس :

- إنني اذن لا أريـد الاستماع اليها . فأنا أحب كثيراً أن أسمع موسيقى . (الواقع أن هذا غير صحيح ، وإنما أقول ذلك تظرفاً) .

وبدا جان - شارل مهتماً جداً :

– ما هو الحد الأدنى من الثمن لمثل هذه الآلة المتقنة ؟

– الحد الأدنى . الحـد الأدنى الدقيق هو ثلاثمئة الف فرنك قديم . ولكني لا أقصد هذا ، لا أقصد هذا على الاطلاق .

فسأل دوفرين :

– الحصول على آلة جيدة حقاً يتطلب إذن زهاء مليون .

– اسمع : إن مضخم الصوت على آلة مونو يكلف ما بين ستمئة الف فرنك ومليون . أما على الستيريو فاحسبْ لها مليونين . وأنا أنصحك بالمونو الذي هـو أفضل من ستيريو متوسط. وأما آلتا توسيع الصوت الجيد فتكلفان زهاء خمسمئة الف فرنك .

فقال دوفرين وهو يتنهد :

– هذا ما كنت أقوله : الحد الأدنى مليون .

قال جيلبير :

– هناك طرق أشد بلادة لانفاق مليون فرنك !

فقال جان – شارل للورانس :

– إذا نجح فرني في قضية روسيون ، اشترينا هذا .

والتفت نحو دومينيك قائلاً:

– إن لديه فكرة عظيمة لاقتناء أحد هذه البيوت الاستمتاعية التي تُبنى هناك .

فقال دوفرين :

– إن لدى فرني افكاراً عظيمة. ولكنها لا تتحقق غالباً .

قال جان – شارل :

– سوف تتحقق .

ثم سأل جيلبير :

– هل تعرفه ؟ إن العمل معه ممتع ؛ والمصنع كله يعيش في الحماس . إنهم لا ينفـّذون ، بل يخلقون .

فقطعت دومينيك بقولها :

– إنه أكبر مهندس معماري في جيله ، وهو في الطليعة من التنظيم المدني .

وقال دوفرين :

– إنني أفضل مع ذلك أن أكون عند مونود. هناك لا يخلقون بل ينفذون. غير انهم أكثر ربحاً .

فنزع هوبير غليونه من فمه وقال :

– هذا اعتبار له قيمته.

ونهضت لورانس ، فابتسمت لأمها وقالت :

– هل أستطيع أن أسرق بعض زهورك من الأضاليا ؟

– بكل تأكيد .

ونهضت مارت أيضاً ، فابتعدت مع أختها :

– هل رأيت بابا يوم الأربعاء ؟ كيف حاله ؟

– هو في البيت مرحٌ دائماً . وتغييراً للجوّ ، تخاصم مع جان – شارل .

– إن جان – شارل لا يفهم بابا ، هو أيضاً .

وتطلّعت مارت الى السماء تتفحّصها :

– كم هو مختلف عن الآخرين ! إن بابا يبلغ ، على طريقته ، ما هو خارق . فالموسيقى والشعر هما في نظره صلاة .

وانحنت لورانس على زهور الأضاليا ؛ إن هذه اللغة تزعجها . صحيح أنه يملك شيئاً لا يملكه الآخرون ، ولا أملكه أنا (ولكن ما عساني لا أملك مما يملكون ؟) إنه يضمّ في يده زهور الأضاليا الرائعة ،سواء كانت وردية أم حمراء أم صفراء أم برتقالية .

وسألت دومينيك :

– قضيتما نهاراً جميلاً ، يا فتاتيّ الصغيرتين ؟

فقالت مارت في حميّا :

– رائع .

وردّدت لورانس :

– رائع .

كانت الشمس تميل إلى الغروب . ولم تكن حزينة لعودتها إلى البيت . وتردّدت . لقد انتظرت حتى الدقيقة الأخيرة ؛ وأن تطلب شيئاً من أمها ، هذا ما لا يزال يخيفها كما كان يخيفها وهي في الخامسة عشرة :

– لديّ ما أطلبه منك . . .

فجاء صوت دومينيك بارداً :

– ما هو ؟

– بصدد « سيرج » . إنه يودّ أن يترك الجامعة ، ويفضّل أن يعمل في الإذاعة أو التلفزيون .

– أيكون أبوك هو الذي كلّفك بذلك ؟

– التقيت عند أبي ببرنارد وجورجيت .

– كيف حالهما ؟ ألا يزالان يمثّلان دور فيلمون وبوسي ؟

– أوه ! لقد لحتهما لحاً .

– قولي لأبيك مرة أخيرة انني لست مكتب توظيف . أنا أجد مثل هذه المحاولات لاستغلالي أمراً مغيظاً . إنني لم أنتظر قط شيئاً من أحد .

قالت مارت :

– إنك لا تستطيعين أن تلومي بابا أنه يريد مساعدة حفيده .

– ألومه أنه لا يستطيع شيئاً بذاته .

ورفعت دومينيك يدها تدفع بها الاعتراضات الممكنة :

– كنت أفهم لو أنه كان متصوفاً أو دخل « لاتراب[1] » (وفكرت لورانس : هذا ليس صحيحاً) ولكنه اختار الاعتدال والكفاف .

إنها لا تغفر له أن يكون قد أصبح سكرتيراً محرّراً في مجلس النواب ؛ لا

---

١ – دير معروف في « سوليني » بفرنسا يراعي فيه رجال الدين قانون تقشف شديد القسوة (هـ . م) .

المحامي الشهير الذي ظنّت أنها تزوجته .

قالت لورانس :

– لقد تأخّر الوقت . أنا صاعدة لأعيد تجمّلي .

كان من المستحيل أن تسمح بمهاجمة أبيها ، ولكن الدفاع عنه كان أسوأ . كانت تحسّ دائماً ، إذ تفكّر فيه ، بهذه الغصّة في القلب ، وهذا النوع من تبكيت الضمير . وبلا سبب : لم آخذ قط جانب الماما .

قالت دومينيك :

– أنا أيضاً صاعدة لأغيّر ثيابي .

وقالت مارت :

– إنني سأهتمّ بالأولاد .

كان ذلك مريحاً: فمنذ أن دخلت الرهبنة وهي تستولي على جميع السخرات. وهي تستمدّ منها مباهج رفيعة جداً حتى إن المرء يستطيع أن يَدَعها لها من غير ما وسواس .

وفيما كانت لورانس تعيد تصفيف شعرها في غرفة أمّها – ما أجمل هذا الطابع الريفيّ الإسباني ! – بذلت مجهوداً أخيراً :

– ألا تستطيعين حقاً أن تقدّمي خدمة لـ « سيرج » ؟

– لا .

واقتربت دومينيك من المرآة :

– أيّة هيئة لي ! إن المرأة التي في سنّي والتي تشتغل طوال النهار وتخرج كل مساء ، هي امرأة هالكة . سأكون بحاجة الى النوم .

وتفحّصت لورانس أمّها عبر المرآة . إنها الصورة الممتازة المثلى لامرأة تشيخ على نحو جيّد . امرأة تشيخ . وهذه الصورة ، كانت دومينيك ترفضها . وسقط في يدها ، للمرة الأولى . لقد قبلت المرض ، والضربات القاسية. وفجأة يبدو الذعر في عينيها :

– إنني لا أستطيع أن أصدّق بأني سأبلغ يوماً السبعين .

فقالت لورانس :

– ليس ثمة امرأة واحدة تصمد مثل صمودك .

– بالنسبة للجسم ، لا بأس، فأنا لا أحسد أحداً . ولكن انظري هذا ...

وأومأت إلى عينيها ، وعنقها . طبعاً ، ليست هي بعدُ في الأربعين .

وقالت لورانس :

– بالطبع ، لستِ بعد في العشرين . ولكن كثيرين من الرجال يفضّلون النساء اللواتي « عشن » . والدليل ، جيلبير ...

– جيلبير ... انما أقتل نفسي من أجل الخروج ، لكي أحتفظ به . ولكنّ هذا يوشك أن ينقلب عليّ .

– أيّ كلامٍ هذا !

وارتدت دومينيك تايورها من طراز « بالانسياجا » . ليس من « شانيــل » على الاطلاق ، والنـــاس ينفقون ثروات ليبدوا وهم يقتنون ملابسهم من سوق « البقّ » . وتمتمت :

– يا لقذارة مـــاري – كلير ! إنها ترفض الطلاق بعنـــاد : لا لشيء إلا لتبعصني .

وماري – كلير تقول بكل تأكيد : يا لقذارة دومينيك ! كان جيلبير ، في عهد لوسيل دو سان – شامون ، ما يزال يسكن مع زوجته ، ولم تكن القضية حتى لتطرح ، إذ كان للوسيل زوج وأولاد . وكانت دومينيك قد أجبرتـه على أن ينفصل عن ماري – كلير ، ولئن كان قد رضخ فلأنّ ذلك كان يناسبه بكل تأكيد ، ولكن لورانس مع ذلك كانت قد وجدت أمها همجية بما فيه الكفاية .

– لاحظي أن الحياة المشتركة مع جيلبير ستحتمل كثيراً من المفاجآت . إنه يحب حرّيته .

– وأنت تحبين حرّيتك .

– نعم .

واستدارت دومينيك أمام المرآة على وجوهٍ ثلاثة وابتسمت. والحقيقة إنها

كانت مفتونة بان تذهب لتناول العشاء في منزل آل فردوليه ؛ إن الوزراء يهمّها أمرهم . وقالت لورانس في نفسها كم أنا سيئة النيّة . إنها أمّها ، وهي تكنّ لها الشغف . ولكنها كذلك أجنبيّة . فمن الذي يختبيء خاف المرايا التي تدور ؟ ربما لم يكن ثمة أحد على الإطلاق .

– كل شيء عندك على ما يرام ؟

– على ما يرام تماماً . إنني أطير من نجاح إلى نجاح .

– والصغيرتان ؟

– لقد رأيتهما . انهما تكبران .

إن دومينيك تطرح الأسئلة ، على سبيل المبدأ ، ولكنها كانت تجد من الفضول غير المستحبّ أن تعطيها لورانس أجوبة مقلقة ، أو بكل بساطة مفصّلة .

وفي الحديقة ، كان جان – شارل منحنياً فوق أريكة جيزيل : غزلٌ دقيق يغريهما كليهما (كما يغري دوفرين ، على ما أظنّ) وكلٌ منهما يعطي الآخر الانطباع بأنّ بوسعهما أن يخوضا المغامرة التي لم يكن أحدهما ليتمنّاها (ولنفرض انهما خاضا هذه المغامرة ؟ أعتقد ان ذلك سيكون لديّ سواء . إن بالامكان اذن أن يكون ثمة حبّ بلا غيرة ؟)

قال جيلبير :

– وإذن ، فأنا أعتمد على حضورك يوم الجمعة . إننا لا نتسلى حين لا تكونين معنا .

– حسْبك مبالغة !

– أؤكد لك ذلك .

وشدّ على يد لورانس باندفاع ، كما لو أنه كان بينهما تواطؤ خاصّ ؛ من أجل هذا كان الجميع يجدون له سحراً .

– الى الجمعة .

إن الناس يلحّون على رؤية لورانس ، وهم يأتون اليها في استعجال : وهي لا تفهم حقاً سبب ذلك .

قالت جيزيل :

– يوم رائع !

فقال جان – شارل :

– إن من يعيش هذه الحياة في باريس شديد الحاجة الى مثل هذه الراحة .

فقال جيلبير :

– هذا ما لا غنى عنه .

ووضعت لورانس الصغيرتين داخل السيارة المغلقة الأبواب ، وجلست بقرب جان – شارل الذي انطلق على الطريق خلف سيارة دوفرين .

وقال جان – شارل :

– إن مـا يُدهش لدى جيلبير أن يبقى بسيطاً إلى هذا الحدّ . ولنتذكر مسؤولياته وسلطته . ليس لديه أدنى أثر من التظاهر بالأهمية .

– إن بوسعه أن يستغني عنها .

– أنت لا تحبينه ، هذا طبيعي ، ولكن لا تكوني ظالمة .

– بلى ، إنني أحبّه كثيراً (هل تحبّه أم لا ؟ إنها تحبّ جميع الناس) .

وقالت في نفسها صحيح إن جيلبير لا يتكلم كثيراً ولا يتحذلق ، ولكن ليس ثمة من يجهل أنه يدير إحدى أكبر شركتين الآلات الألكترونية في العالم ، كما لا يجهل دوره في إنشاء السوق المشتركة .

وقال جان – شارل :

– أتساءل عن أرقام دخله . انها عملياً غير محدودة .

– يُذعرني أن أملك هذا القدر من المال .

– إنه يستعمله بذكاء .

– صحيح .

غريبٌ هـذا : إن جيلبير مسلّ جداً حين يروي أسفاره . فبعـد مضيّ ساعة ، يخفق المرء في وضع إصبعه على ما قال .

وقال جان – شارل :

– نهاية اسبوع ناجحة حقاً !
– ناجحة حقاً .

ومن جديد تساءلت لورانس ، ماذا لا أملك مما يملكون ؟ اوه ! ينبغي ألا نقلق ؛ إن هناك أياماً كهذه ينهض فيها الإنسان ضجراً ولا يستمتع بشيء ؛ ولا بدّ لها من أن تتعوّد . ومع ذلك فهي تتساءل كل مرة : مـــا الذي أشكوه ؟ وتصبح فجأة لامبالية ، بعيدة ، كما لو انها ليست واحدة منهم . لقد شرحوا لها الانهيار العصبي الذي أصابها منـــذ خمسة أعوام ؛ وكثيرات من النساء الشابات يجتزن هذا اللون من الأزمات . وقد نصحتها دومينيك أن تخرج من بيتها ، وأن تعمل . وكان جان – شارل موافقاً حين رأى كم كنت أربح . والآن ليس لي من مبرّر للإخفاق . إن أمامي عملا دائمـــاً ، وأشخاصاً حولي ، وأنا مسرورة من حياتي . لا ، ليس ثمة أيّ خطر . إنما القضية قضية مزاج وحسب. وأنا متأكدة من أن هذا يحدث للآخرين أيضاً ، في غالب الأحيان ، فلا يعقّدون الأمر .

والتفتت الى البنتين :

– هل تسلّيتما جيداً ، يا عزيزتيّ ؟

فقالت لويز في اندفاع :

– اوه ! نعم .

وتسربت رائحة أوراق ميتة من النافذة المفتوحـة ؛ وكانت النجوم تلمع في سماء طفولية، وأحست لورانس فجأة أنها في رضى وراحة .

وتجاوزتهم سيارة « الفيراري » ، فلوّحت دومينيك بيدها، ووشاحها يخفق في الهواء . إن لها حقاً لشخصية . وكان جيلبير يحمل أعوامه الستة والخمسين على نحو رائع . زوجان حقيقيان . وبالاجمال ، كانت على حـق في أن تطلب وضعاً واضحاً .

قال جان – شارل :

– إنهما متلائمان تماماً . وهما ، من حيث السنّ زوجان منسجمان .

زوجان . وتفحصت لورانس جان – شارل. إنها تحب أن تكون الى جانبه

وهو يقود السيارة . انه ينظر بتنبه الى الطريق . وهي ترى جانب وجهه، هذا الجانب الذي كانت تنفعل له كثيراً منذ عشرة أعوام،وهو ما يزال يؤثر فيها. على أن جـــان – شارل يختلف بعض الشيء اذا نظرت الى سحنته مواجهة . فهي تكفّ عن أن تراه على النحو نفسه . إن له وجهاً ذكياً نشطاً ولكنه ، كيف تصفه ، ثابت ، جامد ككل الوجوه . أما جانبياً ، فان الفم يبـدو في الظل أكثر تحيراً ، والعينان أكثر حلماً . هكذا بدا لها قبل أحد عشر عاماً؛ وهكذا يبدو لها في غيابه، وأحياناً ، على نحو خفي، حين يقود السيارة وهي الى جانبه. وكانا صامتين . وكان الصمت يشبه التواطؤ ؛ انه يعبر عن توافق أعمق من أن تشرحه الكلمات . ربما كان ذلك وهماً . ولكن بينما كانت الطريق تنفغر تحت العجلات ، وبينما كانت البنتان يهوّم عليهما النعاس ، وبينما كان جان – شارل ملتزماً الصمت ، كانت لورانس تريد أن تصدق ذلك.

وزال كل ضيق حين جلست لورانس بعد ذلك بقليل أمام طاولتها: إنهـــا متعبة بعض الشيء فحسب ، دائخة بفعل الريح القوية ، مستعدة لهـذه الألوان من التيهان الذي كانت دومينيك تحطمه : « كفّي عن الحلم : إفعلي شيئاً مـا » وكانت هي تمتنع عنه تلقائياً الآن . وقالت في نفسها وهي تفك قلم الحبر : «يجب أن أعثر على هذه الفكرة . أية صورة إعلانية جميلة ، تَعِدُ – لصالح بائع أثاث أو بائع قمصان أو بائع زهور – بالأمن والسعادة . ان الزوجـــين السائرين على الرصيف ، محاذيين السور تحت حفيف الأشجار العذب ، يقفان ليتأملا داخـل البيت المثالي : فتحت المصباح ، يُرى الشاب الجميل الأنيق بصدرتـه الانغورة وهو يقرأ مجلة بهيئة اهتمام ؛ والمرأة الشابة ترى جالسة الى طاولتها ، وقـلم حبر في يدها ، والإنسجام قائم بـين الألوان السوداء والحمراء والصفراء المتناسبة (يا للصدفة السعيدة !) مع زهور الأضاليا الحمراء والصفراء . لقد كانت ، حـــين قطفتها الساعة ،زهوراً حية . وأخذت لورانس تفكر بهذا الملك الذي كان يحيل

ذهباً كل ما كان يمسه حتى أصبحت ابنته الصغيرة لعبة رائعة من المعدن . ان كل ما تمسه هي يتحول الى صورة . « إنك بلوحات من خشب تمزجين أناقة المدن بكل شعر الغابات » . رلمحت عبر الأغصان والأوراق تدفق النهر الأسود ، ومر قـــارب يفتش الضفاف بنظره الأبيض . ولطّخ الضياء الزجاج ، فأثار بقسوة العاشقين المعتنقين ، صورة من المـاضي تُرَدّ لي . أنا التي هي صورة من مستقبلهما الرقيق ، مع أطفال يحلمون بأنهم نائمون في الغرف الداخلية . « يتسلل أطفـال الى داخل شجرة جوفاء فيجدون أنفسهم في غرفـة فاتنة ذات ألواح من خشب طبيعي » . فكرة يمكن أن تُتابع .

لقد كانت دائماً فكرة صورة ، وقد سهرت دومينيك على ذلك مسحورةً في طفولتها بصور شديدة الاختلاف عن حياتها ، مصرّة – بكل ذكائها وطاقتها الهائلة – على ردم هذه الحفرة . (إنك لا تعرفين ما معنى أن يكون لك حذاء ممزق وأن تشعري عبر جوربك انك تمشين على بصقة . ولا تعرفين معنى أن تحدجك رفيقات لك ذوات شعر نظيف دائماً وهن يتدافعن بالمرفق . لا . لن تخرجي وهذه اللطخة على تنورتك . فاذهبي فأبدليها .) كانت فتاة صغيرة لا شائبة فيهـــا . مراهقـــة مكتملة ، صبية ممتازة . كم كنتِ نظيفة نضرة رائعـة ... كما يقول جان – شارل .

كان كل شيء نظيفاً ، نضراً ، رائعاً : ماء الحوض الأزرق ، وحفيف أكرة التنس الباذخ ، والعقارب الحجريـــة البيضاء ، والسحب المتدحرجة في السماء الملساء ، ورائحة الصنوبر . كانت لورانس ، إذ تفتح مصاريعها كل صباح ، تتأمل صورة فوتوغرافية رائعة على ورق مصقول تمثل صبية وفتيات بثياب فاتحة ، في فناء الفندق ، وقد سمّرت الشمس بشرتهم ، وصقلتها كأنها الحصى الجميـــل . وصورة لورانس وجان – شارل في ثياب فاتحة وبشرة مسمّرة مصقولة . وفجأة ، ذات مساء ، في طريق العودة من نزهة ، داخل السيارة المتوقفة ، فمه على فمي ، وذلك الأتون ، وهذا الدوار . واذ ذاك ، خلال أيام وأسابيع ، كففت عن أن أكون صورة ، وأصبحت لحماً ودماً ، وشهوة ولذة . واستردت كذلك تلـك

العذوبة الأكثر خفاءً التي كنت قد عرفتها من قبل ، وأنا جالسة عند قدمي أبي أو ممسكة يده بيدي ... ومن جديد ، منذ ثمانية عشر شهراً ، مع لوسيان ؛ النار في عروقي ، وفي عظامي ذلك الانحلال اللذيـذ . وعضّت على شفتها . لو كان جان – شارل يدري ! والواقع ، أن لا شيء قد تغيّر بين لورانس وبينه . أما لوسيان – فهو على الهامش . والحقّ إنه لم يَعُد يفعل فيها كالسابق .

- هل أتت هذه الفكرة ؟

– سوف تأتي .

نظرة من الزوج فطنة ، وبسمة من المرأة الشابة رقيقة . لقد قالوا لها دائماً انها تملك بسمة جميلة : وهي تحسّها على شفتيها . سوف تأتي الفكرة . إن الأمر صعب دائماً في البدء ، فكثيرة هي الكليشيهات المستعملة ، وكثيرة هي الاشراك التي ينبغي تجنبها ، ولكنها تعرف مهنتها . إنني لا أبيع لوحات خشبية : بـل أبيع الأمان والنجاح بالإضافة الى لمسة شعرية. حين اقترحت عليها دومينيك أن تصنع صوراً من ورق ، نجحت نجاحاً كاملاً وسريعاً حتى ظنّ الناس انهـا ذات موهبة . أمان . ان الخشب ليس أكثر قابلية للاشتعال من الحجر أو القرميد : ينبغي أن يُقال ذلك من غير تذكير بفكرة الحريق . وهنـا يحتاج الأمر الى البراعة .

ونهضت فجأة : ترى ، هل تبكي كاترين هذا المساء ايضاً ؟

كانت لويز نائمة . وكانت كاترين تنظر الى السقف . وانحنت لورانس :

– ألست نائمة يا حبيبتي ؟ بمَ تفكرين ؟

– بلا شيء .

وقبلتها لورانس ، متعجبة . إن هذه الأسرار ليست من طبع كاترين . فهي منفتحة ، بل وثرثارة .

– ان الإنسان يفكر دائماً بشيء ما . حاولي أن تقولي لي .

وتتردد كاترين لحظة . فتدفعها بسمة أمها إلى القول :

– ماما ، لماذا نحن موجودون ؟

هذا هو نوع الأسئلة التي يوجهها اليك الأولاد وأنت لا تفكرين إلا ببيع لوحات خشبية . لا بد من الاجابة بسرعة :

– يا جوهرتي . سنكون أنا وبابا حزينين جداً إن لم تكوني موجودة .

ــ واذا لم تكونا أنتما موجودين ؟

أي قلق في عيني هذه الفتاة الصغيرة التي ما زلت أعاملها كطفلة ! لماذا تطرح على نفسها هذا السؤال ؟ هوذا اذن ما يجعلها تبكي .

– ألم تكوني مسرورة ، بعد ظهر هذا اليوم ، أن تكوني أنت وأنا والجميع موجودين ؟

– بلى .

ولم يبدُ على كاترين انها مقتنعة تماماً . وأشرقت في بال لورانس فكرة ، فقالت باندفاع :

– إنما نحن نوجد ليُسعد بعضنا البعض الآخر .

وكانت معتزة بجوابها اعتزازاً كافياً .

أما كاترين ، فاستمرت تفكر ، وملامح وجهها منغلقة ، أو هي بالأحرى استمرت تبحث عن كلماتها :

– ولكن ، الأشخاص الذين ليسوا سعداء ، لماذا هم موجودون ؟

ها نحن ذا ، لقد بلغنا النقطة الهامة .

– هل رأيت أشخاصاً أشقياء ؟ أين رأيتهم ، يا حبيبتي ؟

فصمتت كاترين ، والخوف بادٍ عليها . أين ؟ إن «غويا» مرحة وهي تتكلم الفرنسية بمشقة . والحي غني : فليس فيه متسكعون ولا شحاذون ؛ أتكون إذن هي الكتب ؟ أيكونون هم الرفاق ؟ هل لك رفيقات صغيرات هن شقيات؟

– اوه ! لا !

وبدا الصوت صادقاً . وتقلبت لويز في سريرها ، وقد آن لكاترين أن تنام ؛ وليس يبدو عليها أنها راغبة في المزيد من الكلام ، وإن اقناعها بذلك ليحتاج الى وقت .

– اسمعي . سنتحدث في هذا غداً . ولكن ان كنت تعرفين أشخاصاً تعساء ، فسنحاول أن نعمل من أجلهم شيئاً ، إن بالإمكان معالجة المرضى ومساعدة الفقراء بالمال ، وأشياء كثيرة أخرى ...

– صحيح ؟ من أجل الجميع ؟

– أظنك تعتقدين أنني سأبكي طوال النهار إن كان هناك أشخاص لا علاج لشقائهم . سترين لي كل شيء . وأعدك باننا سنجد العلاجات .

وكرّرت وهي تلامس شعر كاترين :

– أعِدُك . نامي الآن يا حبيبتي الصغيرة .

فانسابت كاترين تحت الغطاء ، وأغمضت عينيها . لقد هدّأها صوت امها وقبلاتها . ولكن غداً ؟ إن لورانس تتحفظ عادة من الوعود غير الحكيمة . وهي لم تعط قط وعداً كهذا غير مأمون العاقبة .

ورفع جان – شارل أنفه ، فقالت لورانس :

– لقد روت لي كاترين حلماً .

غداً ستقول له الحقيقة . لا هذا المساء . لماذا ؟ إنه مهتم بالصغيرتين . وجلست لورانس وتظاهرت بانها تستغرق في بحثها . ليس هذا المساء . انه سيقدّم لها على الفور خمسة شروح أو ستة . وهي تريد أن تفهم قبل أن يُتاح له أن يجيب . ما الذي تشكوه الصغيرة ؟ لقد كنت أنا أيضاً ، في سنها ، أبكي : وكم قد بكيت ؛ وربما كان بسبب ذلك أني كففت عن البكاء . كانت الآنسة هوشيه تقول : « إنه يتوقف علينا نحن أن لا يذهب هؤلاء الموتى بلا جدوى » . وكنت اصدّقها . كانت تقول أشياء كثيرة : أن يكون المرء إنساناً بين البشر ! . وقد ماتت بالسرطان . الإعدامات الجماعية ، هيروشيما : وكان ثمة أسباب في عام ١٩٤٥ تجعل طفلة في الحادية عشرة مذعورة . بل لقد فكرت لورانس أن من المستحيل أن تقع مثل تلك الفظائع من أجل لا شيء ، وكانت قد حاولت أن تؤمن بالله ، وبحياة أخرى تعوّض عن كل شيء . وكانت دومينيك قد وقفت موقفاً رائعاً : فسمحت لها أن تتحدث مع كاهن ، بل هي قد اختارته ذكياً : أجل . في عام

٤٥ كان ذلك طبيعياً. أما اليوم فاذا بكت ابنتي، فإني أنا المسؤولة. وستخطئني دومينيك وجان – شارل أنا بالذات. وجدير بها أن تنصحني بزيارة عالم نفسي . إن كاترين تقرأ بصورة هائلة، أكثر مما ينبغي، ولا أدري تماماً ماذا تقرأ : ولست أملك الوقت لذلك . ومهما يكن من أمر ، فإن الكلمات لن تحمل لها المعنى نفسه الذي تعنيه لي .

قال جان – شارل وهو يربت على مجلته باصبع متأمل :

– هل تتصورين ! إن في كوننا نفسه مئات الكواكب المسكونة ! إننا نشبه دجاجاً محجوراً عليه في خنّ يظنه العالم كله .

– اوه ! حتى على الأرض . نحن محجوزون في دائرة صغيرة ، ضيقة غاية الضيق .

– ليس اليوم . فنحن مع الصحافة والأسفار والتلفزيون وعمّا قليل الموندوفيزيون نعيش كوكبياً . والخطأ هو أن نعتبر الكوكب الكون كله . وعلى أي حال ، فسيكون قد تمّ عام ٨٥ استكشاف النظام الشمسي كله . ألا يدعوك ذلك الى التفكير ؟

– بصراحة ، لا .

– إن خيالك قصير .

وفكرت لورانس :حتى الأشخاص الذين يسكنون في الطابق الأعلى ، لا أعرفهم .أما الذين في الشقة المقابلة، فهي تعرف عنهم الكثير ، عبر الحاجز: مياه الحمّام تسيل ، الأبواب تصطفق ، الراديو يصبّ أغاني واعلانات عن« البنانيا »، الزوج يشتم زوجته التي تشتم بعد ذهابه ابنهما . ولكن ما الذي يجري في الثلاثمئة والأربعين شقة التي يضمها البناء؟ وفي بيوت باريس الأخرى؟ إنها تعرف لوسيان في مؤسسة « بوبلانف » ، وتعرف مونا بعض الشيء . وتعرف بعض الوجوه وبعض الأسماء . اسرة ، أصدقاء : نظام صغير مغلق ؛ وجميع تلك الأنظمة الأخرى التي لا يُنفذ اليها . إن العالم قائم في كل مكان آخر ، وليس ثمة سبيل الى دخوله . ومع ذلك ، فهو قد تسلّل الى حياة كاترين ، وهو يذعرها ويجب عليّ

أن أحميها منه . كيف لي أن أجعلهــا تقرّ بوجود أشخاص تمساء وكيف لي أن أجعلها تصدّق بانهم سيكفـّون عن أن يكونوا كذلك ؟

وسألها جان – شارل :

– ألا تشعرين بالنعاس ؟

لن تأتي أية فكرة هذا المساء ، فلا جدوى من المعاندة . وابتسمت ابتسامة أرادتها منسجمة مع ابتسامة زوجها :

– بلى . إنني ناعسة .

طقوس ليلية ، خرير الماء الفرح في الحمـام . وعلى السرير المنامة التي تنبعث منها رائحة اللاونـــد والتبغ الأشقر ، وجان – شارل يدخّن سيكارة في حين أن الدوش يزيل عن لورانس هموم النهار . محو سريع للماكياج وترتدي القميص الرقيق ، إنها مستعدة . (اختراع عظيم هو هـــذا القرص الذي نبتلعه صباحاً ونحن ننظف أسناننا : لم يكن ممتعاً أن تضطر الى تلك التدابير الاحتياطيـــة الكثيرة المزعجة .) وفي رطوبة الفراش الأبيض ينزلق القميص من جديد عـن بشرتها ، ويطير من فوق رأسها ، فتستسلم لحنان جسم عارٍ . جذل المداعبات والملامسات . لذةٌ عنيفة فرحة . بعد عشر سنوات من الزواج ، تفاهم جسدي ممتاز . صحيح ، ولكنه لا يغير لون الحياة . إن الحب أيضاً أملس ، صحّيّ ، روتيني .

قالت لورانس :

– نعم ، إنها لطيفة ، رسومك هذه .

والحق أن « مونا » موهوبة ؛ وقد اخترعت شخصية صغيرة ممتعة غالباً مــا استعملتها لورانس في حملاتها ، بل أكثر مما ينبغي ، على مــا يقول لوسيان الذي هو أفضل مؤلف موضوعات (موتيفات) في الدار .

قالت مونا :

– ولكن ؟

وكانت تشبه مخلوقتها : خبيثة ، قاسية وجميلة .

– تعرفين ما يقول لوسيان . يجب ألاّ تبالغي في روح الفكاهة . وفي هذه الحالة – فالخشب يكلف غالياً ، وهذا شيء جدّيّ – فانّ الصورة الملوّنة تصيب نجاحاً أكبر .

وقد احتفظت لورانس بصورتين ، مؤلفتين وفقاً لإرشاداتها : صورة غابة سامقة الأشجار بأعشابها وممرّها وإشماع جذوعها القديمة ، وصورة امرأة شابّة في ثوب رقيق ، تبتسم وسط غرفة مزيّنة بلوحات خشبية .

وقالت مونا :

– إنني أجدها تافهة .

– تافهة ، ولكنها تجذب النظر .

قالت مونا :

– سينتهي بي الأمر إلى أن أفرغ نفسي . لقد أصبح الرسم لا أهمية له في هذا المكان . إنكم تفضّلون الصورة الفوتوغرافية دائماً .

وجمعت صوَرَها وسألت في فضول :

– ما الذي يحدث مع لوسيان ؟ ألا ترينه بعد ؟

– بلى .

– إنك لا تطلبين مني بعدُ حججاً .

– بل سأطلبها منك .

وخرجت مونا من المكتب ، وعادت لورانس تعمل في دقّة بالنصّ الذي سيرافق الصورة . ولكنها لم تكن متحمّسة . وقالت لنفسها في سخرية : « هوذا الوضع الممزّق للمرأة التي تعمل » . (وكانت تشعر بأنها أكثر تمزّقاً حين لم تكن تعمل) انها في البيت تبحث عن شعارات ؛ وهي في المكتب تفكر بكاترين . ومنذ ثلاثة أيام ، لا تفكر بعدُ بشيء آخر .

كانت المحادثة طويلة ومشوّشة . وكانت لورانس تتساءل ايّ كتاب أو أي

لقاء أثر على كاترين ؛ إن ما كانت كاترين تريد أن تعرفه هو كيف كان بالإمكان إلغاء الشقاء . وقد تحدثت لورانس عن المساعِدات الاجتماعيات اللواتي يساعدن الشيوخ والسكان المحليّين ، وعن الممرضات والطبيبات اللواتي يشفين المرضى .

– هل أستطيع أن أكون طبيبة ؟

– بكل تأكيد ، اذا ظللت تدرسين جيداً .

فأشرق وجه كاترين ؛ لقد فكروا في مستقبلها : إنها ستعنى بالأطفال ، وكذلك بأمهاتهم ، ولكن خصوصاً بالأطفال .

– وأنت ، ماذا تعملين من أجل التعساء ؟

يا لهذه النظرة التي لا ترحم في عيون الأطفال الذين لا يمثّلون !

– إنني أساعد البابا في كسب حياتنا. فالفضل يرجع لي أنا في انك ستتابعين دروسك وتشفين المرضى .

– وبابا ؟

– انه يبني بيوتاً لمن لا يملكون البيوت . هذه أيضاً طريقة في تقديم الخدمة لهم .

(يا للكذب الفظيع ! ولكن إلى أية حقيقة يمكن الركون ؟) وظلت كاترين مبلبلة . لماذا لا يُعطى الطعام لجميع الناس ؟ وطرحت لورانس أسئلة من جديد ، وانتهت الصغيرة الى التحدث عن الإعلان . الأنّ ذلك كان أهمّ شيء ، أم لرغبةٍ عندها في إخفاء شيء آخر ؟

ربّما كان الإعلان ، في نهاية المطاف ، هو التفسير الحقيقي . قوة الصورة على الإيحاء . « إن ثلثي الناس جائعون » ويا لهذا الوجه الطفوليّ الجميل ، بعينيه المتسعتين وفمه المنغلق على سرّ رهيب ! إن هذا بالنسبة لي علامة : علامةُ أنّ الصراع مستمر ضد الجوع . لقد رأت كاترين طفلاً في سنها ، كان جائعاً . وإني لأتذكر : كم كان الأشخاص الكبار يبدون لي عديمي الإحساس ! إنّ هناك أشياء كثيرة لا نلاحظها ؛ بلى ، نلاحظها ولكننا نهملها أو نتجاهلها لأننا نعلم أن لا

فائدة من التوقف عندها . ما جدوى تبكيت الضمير ؟ – وهنا يتفق البابا وجان – شارل ، هذه المرة على الأقل – . قضية التعذيبات تلك ، التي حدثت منذ ثلاثة أعوام ، فكرت بها طويلاً حتى مرضت : فما كان جدوى ذلك ؟ إننا مجبرون على أن نعتاد فظائع العالم ، فعددها يتجاوز الحدّ المعقول : عَلف الأوز ، قطع الأعضاء ، السحل ، ألوان القمع ؛ إننا نرى هذا في السينما ، في التلفزيون ، فنمضي غير مبالين . صحيح إن هذا سيزول ، بالضرورة ، فهي قضية وقت . ولكن الأطفال يعيشون في الحاضر ، وليس لديهم من دفاع . وقالت لورانس في نفسها : « لا بدّ من التفكير بالأولاد . وينبغي ألا تعرض مثل هذه الصور على الجدران . » تفكير كريه . كريه : كلمة من سنوات الخمس عشرة . ولكن ماذا تعني ؟ إنّ لي ردّ الفعل الطبيعي لأم تريد أن تحمي ابنتها .

وانتهت لورانس الى القول : « هذا المساء ، سيشرح لك بابا كل شيء » . عشر سنوات ونصف : اللحظة التي تستطيع فيها ابنة أن تنفصل قليلاً عن أمها وأن تتجه نحو أبيها . وفكرت بانه سيجد خيراً مما تجد حججاً مُرضية .

وفي البدء ، أزعجتها لهجة جان – شارل . لم تكن ساخرة تماماً ، ولا مجاملة بل أبوية .

وبعد ذلك ألقى خطاباً قصيراً واضحاً جداً ، مقنعاً جداً . وحتى ذلك الحين كانت نقط الأرض المختلفة متباعدة فيما بينها ، ولم يكن الناس يحسنون تدبر أمورهم ، وكانوا أنانيين . وقد كان ذلك الإعلان يعني اننا نريد أن تتغير الأشياء . وبالإمكان الآن إنتاج قدر من الطعام أكبر جداً من ذي قبل ، ونقله بسرعة وسهولة من البلاد الغنية إلى البلاد الفقيرة : وهناك مؤسّسات تهتمّ بذلك .

وقد أصبح جان – شارل غنائياً ، شأنه كلما ذكر المستقبل : لقد غطى الصحارى القمحُ والخضار والأثمار ، وأصبحت الأرض كلها هي الأرض الموعودة ؛ كان جميع الأطفال وقد أتخموا بالحليب والأرز والطماطم والبرتقال .

وكانت كاترين تستمع مسحورة : كانت ترى الحدائق والحقول في عيد .

– إذن ، لن يبقى ثمة شخص حزين ، بعد عشر سنوات ؟

– لا نستطيع أن نقول ذلك . ولكن جميع الناس سيأكلون ؛ وجميع الناس سيكونون أكثر سعادة .

وإذ ذاك قالت بلهجة مقتنعة :

– كنت أتمنى لو أني وُلدت بعد عشرة أعوام .

فضحك جان – شارل ، معتزاً بنضج ابنته البكر ، ولم يأخذ دموعها على مأخذ الجدّ ، وكان راضياً بنجاحها المدرسي . إن الأطفال غالباً ما يجدون أنفسهم ضائعي الاتجاه حين يدخلون الصف السادس ؛ أما هي فان اللاتينية تسليها ؛ وقد أحرزت علامات جيدة في جميع الفروع . وقد قال لي جان – شارل : « سنجعل منها شخصاً معتبراً » . أجل ، ولكن من ؟ إنها الآن طفلة حزينة جداً ، ولا أدري كيف أواسيها .

ودقّ جرس التلفون الداخلي .

– لورانس ، هل أنت وحدك ؟

– نعم .

– أنا آتٍ لألقي عليك التحية .

وفكرت لورانس : « سيُنحي عليّ باللوم » ؛ صحيح انها أهملته منذ العودة من عطلة الصيف ؛ كان ينبغي إعادة فتح الدار ، وإطلاع غويا على الوضع ، ولكن لويز أصيبت بالنزلة الصدرية . وكانت قد مرّت ثمانية عشر شهراً منذ تلك الحفلة في « بوبلانف » التي جرت التقاليد على ألا يُقبَل فيها الأزواج ولا الزوجات . وكانا قد رقصا معاً مدة طويلة – إنه يحسن الرقص – وكانا قد تبادلا القبلات ، وتكرّرت المعجزة : هذه النار في العروق ، وذلك الدوار . والتقيا ثانية في منزله ، ولم تعُدْ الى بيتها إلا عند الفجر ، متظاهرة بالسكر – بالرغم من أنها لم تشرب شيئاً ، وهي لا تشرب قط – بلا ندم ، ما دام جان – شارل لن يعرف شيئاً ولن يكون للقصة من تتمة . وبعد ذلك ، كم من اضطراب ! كان يلاحقني ، وكان يبكي ، فكنت أستسلم ، وكان يقطع صلته ، فكنت أتألم ، وكنت أبحث في كل مكان عن سيارة « الجوليياتا » الحمراء ، وكنت أتشبّث

بالتلفون ، فكان يعود ، وكان يبتهل : اتركي زوجـك ، لا على الإطلاق ولكني أحبك ، فكان يشتمني ، ويذهب ثانية ، فكنت أنتظر ، وأؤمل ، وأيأس ، وكنا نلتقي من جديد، فيا لها من سعادة ، كم تألمت بدونك ، وأنا تألمت بدونك: صارحي زوجك بكل شيء ، على الاطلاق... واستمرّت جميع تلك الروحات والعودات ، وكنا نسقط دائماً عند النقطة نفسها ...

قالت لورانس :

– كنت بحاجة الى رأيك حقاً . أيّ المشروعين تفضّل ؟

فانحنى لوسيان من فوق كتفها ، وتفحّص الصورتين ؛ وتأثرت بهيئته المفكرة المهتمّة .

– من الصعب الاختيار . فكل منها متأثرة بموضوعات مختلفة .

– أيّها أكثر جدوى وفعالية ؟

– إنني لا أعرف أيّ إحصاء مقنع . فاعتمدي على حسّك .

ووضع يده على كتف لورانس :

– متى نتناول العشاء معاً ؟

– سيذهب جان – شارل الى إقليم « الروسيلون » مع فيرني بعد ثمانيـة أيام .

– ثمانية أيام !

– عفواً ! إن لديّ هموماً في البيت : بسبب ابنتي .

– لست أفهم العلاقة .

– أما أنا ، فأفهمها .

مناقشة معهودة أكثر مما ينبغي: لا تريدين بعدُ أن تريني ، بلى أريد ، إفهم، انني أفهم كل شيء ... (ترى هل ثمة في هـذه اللحظة ، في نقطة أخرى من الكون ، لوسيانٌ آخر ولورانسٌ أخرى يقولان الكلمات نفسها ؟ بالطبع ،على كل حال في مكاتب ، وغرف ، ومقاهٍ ، في باريس ، لندن ، روما ، نيويورك ، طوكيو ، بل ربما في موسكو) .

– لنتناول معاً قدحاً في المساء ، عند مغادرة الدار . هل يناسبك هذا ؟

فنظر اليها في لوم :

– ليس لي الخيار .

وذهب غاضباً : مع الأسف . لقد بذل جهداً جاداً ليتقبّل الوضع . انه يعلم انها لن تطلّق أبداً ، فهو لا يهدّد بعدُ بقطع العلاقة . إنه ينطوي لكل شيء . أو يكاد . وهي متعلقة به : فهو يُريحها من جان – شارل ؛ إنه يختلف عنه أشدّ الاختلاف : كالماء والنار . إنه يحب الروايات التي تحكي قصصاً ، ويحب ذكريات الطفولة ، وطرح الأسئلة ، والتشرد . ثم إنها تحس نفسها ذات قيمة ثمينة ، تحت نظره . ذات قيمة ثمينة : هي أيضاً تدعُ نفسها تُملَك . إن المرء يظن بأنه متعلق برجل : والحق انه متعلق بفكرة عن ذاته ، بوهم من الحرية ، أو بشيء غير متوقع ، بألوان من السراب (هل هذا صحيح ، أم انّ المهنة تشوهني ؟) وعملت على إنجاز نصّها . وأخيراً ، اختارت المرأة الشابةَ المرتدية الغلالة الرقيقة . وأغلقت المكتب ، واستقلت سيارتها. وفيما كانت تلبس قفازيها وتغير حذاءها ، صعد في داخلها جذَلٌ مَرح . لقد بلغت ، بالفكر ، شارع « الاونيفرسيته » ، ودخلت الشقة الملآى بالكتب وبرائحة تبغ قوية . ومن سوء الحظ انها لا تبقى أبداً مدة طويلة . إنها إنما تحبّ أباها أكثر من أي شخص آخر – في العالم – وهي ترى دومينيك أكثر من ذي قبل . كذلك كنت في حياتي كلها : إنّ أبي هو مَن كنت أحب ، وأمي هي التي صنعتني .

« يا لك من ثقيل ! » وتردّدت نصف ثانية أكثر مما ينبغي ، لقد سرق الرجل الضخم مكانها . وكان عليها من جديد أن تدور في تلك الأزقة الضيقة ذات الاتجاه الواحد حيث تتلامس القطع الواقية من الجانبين . أما المرائب الأرضية ، والمراكز المدنية ذات المستويات الأربعة ، والمدينة التكنيكية تحت مجرى السين : فبعد عشر سنوات . أنا أيضاً ، كنت أتمنى لو انني أعيش بعد عشر سنوات . وأخيراً ، هذا مكانٌ خال ! مئة متر على القدمين، وتغيّر عالمها: غرفة بوّاب على الطراز القديم ، مع ستار مكسّر وروائح مطبخ ، وفناء

صامت ، وسلم من حجر يُرقى على القدمين ويُصدي تحت الخطوات .

– يستحيل على المرء أكثر فأكثر أن يوقف سيارته .

– إنني أصدّق هذا الكلام .

حتى التفاهات، مع أبيها ، ليست بالتفاهات : بسبب هذا الشعاع المتواطىء في عينيه . انهما كليهما يملكان مذاق التواطؤ : تلك اللحظات التي يحسّ فيها كلّ منهما بانه قريب من الآخر قرباً يوهم بان أحدهما لا يعيش إلا من أجل الآخر . ويلمع الشعاع ، خبيثاً ، حين سألها ، بعد أن أجلسها وقدّم لها عصير برتقال :

– كيف حال أمّك ؟

– على أحسن حال .

– من تراها تقلّد في هذه الأيام ؟

إنه منشارٌ بينهما ، هذا السؤال الذي كان يطرحه فرويد بصدد المصابة بالهستيريا . والواقع أن دومينيك تقلّد دائماً أحداً ما .

– أظن انها في هذه اللحظة جاكلين فيردوليه. إن لها تسريحة الشعر نفسها، وقد تخلّت عن كاردين لتتبنى بالانسياجا .

– إنها تعاشر فيردوليه؟ تلك الحثالة...صحيح انها لم تتردّد قط فيمصافحة أية يد ... هل حدّثتها عن سيرج ؟

– انها لا تريد أن تفعل شيئاً من أجله .

– كنت أتوقع ذلك .

– لا يبدو عليها انها تحبّ عمّي وعمتي . وهي تدعوهما فيلمون وبوسي .

– ليس هذا صحيحاً الى هذا الحدّ . فأنا اعتقد ان اختي قد فقدت كثيراً من أوهامها عن برنار . إنها لا تحبّه بعدُ حباً .

– وهو ؟

– إنه لم يقدّرها قط حق قدرها .

ان يحبّها حباً ؛ أن يقدّرها حق قدرها : إن لهذه الكلمات معناها بالنسبة له . لقد أحبّ دومينيك حباً . ومن أحبّ ايضاً ؟ أن تكون محبوبة منه : هل

ثمة امرأة عرفت أن تكون جديرة بذلك ؟ لا ، بلا شك ، وإلا لما أدركت زاوية فمه هذه الثنيةُ المرّة .

وعاد يقول :

– ان الناس ما يزالون يدهشونني . ان برنار ضد العهد وهو يجد من الطبيعي أن يريد ابنُه دخول الاذاعة والتلفزيون اللذين هما اقطاع حكومي . لا بدّ اني مثاليّ قديم لا يتوب : لقد حاولت دائماً أن أوفق بين حياتي ومبادئي .

فقالت لورانس في أسف :

– أما أنا ، فليست لي مبادىء !

– انك لا تتظاهرين بذلك ، ولكنك مستقيمة ، وهذا خيرٌ من العكس .

هذا ما قاله أبوها في حرارة .

فضحكت ، وشربت جرعة من عصير البرتقال ، فأحسّت بالارتياح .

ما الذي لا تمنحه لكي تحظى بثناء منه ؟ انه غير جدير بمساومة ، ولا بمناورة ، وغير مبال بالمال : انه لفريد .

وفتش في اسطواناته . ليس لديه آلة انتاج الصوت ، ولكنّ عنده عدداً كبيراً من الاسطوانات المختارة بحب .

– سأسمعك شيئاً رائعاً : تسجيلا لـ « تتويج بوبيه » .

وحاولت لورانس أن تركز انتباهها . امرأة تودّع وطنها وأصدقاءها . هذا جميل . ونظرت الى أبيها : ليتها تستطيع ان تخشع مثله ! إن ما حسبت انها تجده مرة أخرى لدى جان – شارل ، ولدى لوسيان ، انما يملكه هو وحده : فعلى وجهه انعكاسٌ من اللامحدود . أن يكون المرء لنفسه حضوراً صديقاً ؛ أن يكون موقداً يشعّ حرارة . إنني أمنح نفسي بَذخَ أن أحسّ بالتبكيت ، وألوم نفسي أن أهمله ، ولكنني أنا التي احتاج اليه .

ونظرت اليه ، وتساءلت ايُّ سرّ هو سرُّه ، وهل تراها ستكتشفه يوماً . إنها لا تصغي . فمنذ وقتٍ طويل كفّت الموسيقى عن محاورتها . إن المؤثر لدى مونتفردي ، والمأساوي لدى بتهوفن يشيران الى آلام لم تشعر بها قط : آلام

ملآى ومسيطرٌ عليها ، ملتهبة . لقد عرفت بعض التمزُّقات الحامزة ، وبعض الحنق والغيظ ، وبعض الأسى والقلق والفراغ والضجر : لاسيما الضجر . إن الضجر لا يُغنـّى . . .

وقالت بصوت حارّ :

– نعم ، إنه رائع .

(كانت الآنسة هوشيه تقول : « قولوا ما تفكرون به » . حق مع الأب ، هذا مستحيل . إنما نقول ما ينتظره الناس منا) .

– كنت أعرف انك ستحبين ذلك . هل أضع البقية ؟

– ليس اليوم . أودُّ أن أسألك نصيحة . بصدد كاترين .

وبدا عليه التنبـّه فوراً ، والترحيب ، وهو غير عالمٍ بالجواب مسبّقاً . وحين انتهت من الكلام ، فكـّر :

– كل شيء على ما يرام ، بينك وبين جان – شارل ؟

سؤال مناسب . لعلني لم أكن لأبكي كما بكيت على الأطفال اليهود المقتولين لو لم تسُد تلك الألوان من الصمت الثقيل في البيت .

– كل شيء على ما يرام .

– إنك تجيبين بسرعة كليّة .

– حقاً ، كل شيء على ما يرام . انني لا أملك حيويته ؛ ولكن مـا عندي يوازن ذلك ، لصالح الطفلتين . إلا أن أكون شاردة أكثر مما ينبغي .

– بسبب عملك ؟

– لا . أحسُّ بأني شاردة بصورة عامة . ولكني لا أحسب اني كذلك مـع الصغيرتين .

وصمت أبوها . فسألت :

– بمَ عساني أستطيع أن أجيب كاترين ؟

– ليس هناك ما يجاب به . فما أن يطرح السؤال ، حتى لا يكون هناك ما يجاب به .

– ولكنَّ عليَّ ان أجيب . لماذا نحن موجودون ؟ صحيح انَّ هذا تجريد ، انه يمتُّ الى الميتافيزيقا ؛ فهذا السؤال لا يقلقني كثيراً . ولكن المصيبة ان ذلك شيء ممزّق بالنسبة لطفلة .

– حتى َعبرَ الشقاء يمكن ايجاد الفرح . ولكني أعترف انـه ليس من السهل إقناع طفلة في العاشرة بهذا .

– وإذن ؟

– سأحاول أن أتحدث اليها وأن أفهم ما الذي يقلقها . وبعد ذلك، أعطيك رأيي .

ونهضت لورانس :

– يجب أن أذهب . لقد آن الأوان .

لعلَّ أبي سيكون أكثر حكمة من جان – شارل ومني . وتابعت لورانس في نفسها : انه يحسن التحدث الى الأطفال ؛ وهو يعرف اللهجة التي يتكلم بها مـع كل شخص. ثم هو يخترع هدايا لطيفة. لقد أخرج من جيبه، إذ وصل الى البيت، قالباً من الورق المقوّى ، محاطاً بتخطيطات لامعة ، شبيهاً بقـالب كبير من السكر الممزوج بعصير التفاح . وأخذت لويز وكاترين ولورانس ، كلٌ بدورها ، تلصق عينها بأحد طرفيه : فاذا هو سحر الألوان والأشكال التي تتركب وتنحل وتخفق وتتضاعف في سيمترية شكل ثمانيّ الأضلاع . صندوق فرجة لا شيء في داخله ؛ إنه العالم الذي يقدّم المادة : زهور الأضاليـا ، والسجاد ، والستائر والكتب . ويتطلّع جان – شارل ، هو أيضاً ، ويقول :

– إن هـذا يقدّم خدمات عظيمة لرّسام أقمشة أو ورق تأثيث . عشر افكار في الدقيقة ...

وتقدّم لورانس الحساء الذي يلتهمه أبوها بغير تعليق (لقد قال لها يومـاً : « أنت لا تأكلين ، وإنما أنت تتغذّين ، إنها مثل جان – شارل لامبالية بمباهج المآكل) . ويروي للصغيرتين حكايات تضحكهما ، ثم يسألهما من غير أن يبـدو عليه انه يطرح أسئلة . إن من الطريف أن يتنزّه المرء في القمر ، فهل تراهمـا

تخافان أن تذهبا اليه ؟ لا ، على الاطلاق ، فاذا أمكن الذهاب اليه ، فهذا يعني أن ذلك ممكن ، ولن يكون هـذا أخطر من ركوب طائرة . ورجل الفضاء لم يدهشها على الإطلاق ؛ بل هما قـد وجدتاه في التلفزيون أقرب الى أن يكون مرتبكاً أخرق ؛ وكان قد سبق لهما أن قرأتا هذه الحكاية في شرائط مرسومة، بل وحق حكاية نزول في القمر ، غير أنّ ما يدهشها أن أحـداً لم ينزل بعدُ من القمر . انهما تودّان أن تعرفـا هؤلاء البشر ، هؤلاء البشر الأعلين ، هؤلاء البشر الادنين الذين حدثهما عنهم أبوهمـا والذين يعيشون على كواكب أخرى . إنهـما تصفانهم ، وتتنازعان الكلام ، يثيرهما ضجيج صوتيهما ، وحضور جدّهمـا ، وبذخ الطعام النسبيّ . هل يعطون دروساً في علم الفلك في الليسيه ؟ وتقول لويز ان لا ، ولكننا نتسلى كثيراً. وتتحدث كاترين عن صديقتها بريجيت التي تكبرها بعام ، والتي هي شديدة الذكاء ، وعن استاذ الفرنسية الذي لا يخلو من غبـاء . وأين غباؤه ؟ فروت غباوات . ولم يكن بالإمكان الحصول على أكثر من ذلك . وفيما كانتا تلتهمان مثلجات بالأناناس ، ابتهلتا الى جدّهما أن يأخذهما ذات أحـد في نزهة بالسيارة ، كما وعدهما . قصور اللوار ، تلك التي يتحدث عنها تاريـخ فرنسا . . .

وعندما وجدوا أنفسهم وحيدين هم الثلاثة سأل جان – شارل :

– ألا تعتقدان أن لورانس قلقة من أجـل لا شيء ؟ إن جميع الأولاد الأذكياء الذين في سن كاترين يطرحون على أنفسهم أسئلة .

قالت لورانس :

– ولماذا هذه الأسئلة ؟ إن لها حياة محمية جداً .

فقال أبوها :

– أية حياة هي اليوم محميّة ، مع الصحف ، والتلفزيون والسينما ؟

قالت لورانس :

– أما بشأن التلفزيون ، فانني حذرة تماماً . ونحن لا نترك الصحف ملقـاة هنا وهناك .

لقد منعت كاترين من قراءة الصحف ، وشرحت لها ، بالأمثال ، بأن من كانت جاهلة توشك أن تفهم الامور خاطئة ؛ وأن الصحف تكذب كثيراً .

– إنك لا تستطيعين على أي حال ، مراقبة كل شيء . هل تعرفين صديقتها الصغيرة الجديدة ؟

– لا .

– قولي لها أن تصحبها . حاولي أن تعرفي من هي وعمّ تتحدث مع كاترين.

قال جان – شارل :

– إن كاترين على كل حال مرحة ، وهي في صحة جيدة . وتعمل جيداً . فلا مجال لحمل أزمة حساسية صغيرة على محمل مأساوي .

كانت لورانس تودّ أن تفكر بان جان – شارل على حق . وحين اتجهت الى غرفة الصغيرتين لتقبلهما ، كانتا تقفزان على سريرهما وتنقلبان وهما تضحكان ضحكاً قوياً . فضحكت معهما . وأحاطتهما ، ولكنها تذكرت وجه كاترين القلق . من هي بريجيت ؟ كان عليّ اليوم أن اتساءل عن ذلك حتى ولو لم تكن تلعب أي دور في هذه القضية . إن أشياء كثيرة ، أكثر مما ينبغي ، تفلت مني.

وعادت الى غرفة الجلوس . وكان أبوها وجان – شارل خائضين في واحدة من هذه المناقشات التي تنصب كلاً منهما في وجه الآخر كل يوم اربعاء .

وقال جان – شارل في نفاد صبر :

– ولكن لا؛ إن الناس لم يفقدوا جذورهم. الجديد في الأمر انهم متجذّرون كوكبياً .

– إنهم ليسوا بعدُ في أي مكان ، فيما هم موجودون في كل مكان . ولم يسبق قطّ أن كان السفر سيئاً الى هذا الحدّ .

– أنت تريد أن يكون السفر اغتراباً . ولكن الأرض ليست بعدُ إلا بلداً واحداً . الى حدّ أن المرء يدهش أن يتطلب الانتقالُ من مكان الى آخر وقتاً .

ونظر جان – شارل الى لورانس :

– هل تذكرين عودتنا الأخيرة من نيويورك ؟ لقد تعوّدنا على النفاثات الى

حدّ ان سبع ساعات من الطيران قد بدت لنا وقتاً سرمداً .

– إن بروست يقول الشيء نفسه عن التلفون . ألا تذكر ذلك ؟ إنه حين يتصل بجدّته في « رونسيير » يلاحظ أن معجزة هذا الصوت البعيد قد غدت مألوفة لديه الى حدّ ان الانتظار يغيظه .

قال جان – شارل :

– لا أذكر ذلك .

– إن أطفال هذا الجيل يجدون من الطبيعي التنزّه في الفضاء . ليس ثمة ما يُدهش أحداً بعد . ولن يلبث التكنيك طويلاً حتى يبدو لنا الطبيعة نفسها ، وسنعيش في عالم لا إنساني تماماً .

– لماذا لا إنساني ؟ إن وجه الانسان سيتغير ؛ فليس بالإمكان حجزه في مفهومٍ جامد لا يتغير . ولكن الفراغ سيتيح له أن يجد من جديد تلك القيم التي تحرص عليها كلّ هذا الحرص : الفرد ، والفنّ .

– إن الانسان لا يسلك هذا الطريق .

– بلى ! انظر الى الفنّ التزييني ؛ وانظر الى الهندسة المعمارية . إن الناس لا يكتفون بعدُ بالوظيفي . ونحن نعود الى نزعة الغريب واللامألوف ، أي الى قيم جمالية .

وفكرت لورانس : ما جدوى ذلك ؟ إن الزمن ، على أي حال ، لن يجري أسرعَ ولا أبطأ . إن جان – شارل بدأ يعيش في عام ١٩٨٥ ، وأبي متحسّر على عام ١٩٢٥ . أنه على الأقل يتحدث عن عالم قد وُجد ، وقد أحبّه : أما جان – شارل فيخترع عالماً قد لا يتحقق أبداً .

وقال :

– اعترفوا بأننا لا يمكن أن نجد ما هو أبشع من منظر السكك الحديدية في الزمن الماضي . أما الآن فان الشركة الوطنية للسكك الحديدية وشركة كهرباء فرنسا تبذلان جهداً كبيراً للحفاظ على جمال المناظر الطبيعية .

– بل هو جهد سيء الحظ .

— على الاطلاق .

وأخذ جان — شارل يعدّد محطات ومراكز توليد كهربائية منسجمة تمام الانسجام مع ما يحيط بها . وفي هذه المنازعات ، كان دائماً هو المنتصر لأنه يستشهد بوقائع . وابتسمت لورانس لوالدها الذي لزم الصمت ، ولكن الشماع في عينيه وبروز الثنية على فمه كانا يدلان على انه يحتفظ بمعتقداته .

وفكرت لورانس بأنه على وشك الذهاب ، وهي هذه المرة أيضاً تكون قد فوّتت الاستفادة منه . فما الذي لا يجري عندي على غير ما يرام ؟ انني أفكّر دائماً بأشياء أخرى .

وقال جان — شارل بعد مضيّ ساعة :

— إن أباك هو حقاً نموذج الرجل الذي يرفض الدخول في القرن العشرين .

فقالت لورانس وهي تبتسم :

— أما أنت ، فتعيش في القرن الواحد والعشرين .

وجلست الى طاولتها . وكان عليها أن تفحص التحقيقات الحديثة التيأشرف عليها لوسيان ؛ وفتحت الملفّ . إن هذا لمضجر ، بل مذلّ . الأملس ، اللامع ، المشعّ ، حلم الانزلاق والإتقان المثلج ؛ قِيم الغزَل وقِيم الطفولة (البراءة) ؛ السرعة ، السيطرة ، الحرارة ، الأمان . هل يمكن لجميع الأذواق أن تفسّر بأهواء بدائية الى هذا الحدّ ؟ أم أنّ المستهلكين الذين سُمّوا هم متأخرون بصورة خاصة ؟ هذا مشكوك فيه . إن علماء النفس هؤلاء يقومون بعمل عاق : أسئلة لا تعد ، دقائق في الاستجواب ، حيلٌ بارعة ، ومع ذلك فهم يسقطون دائماً على الأجوبة نفسها . إن الناس يريدون الجديد ، ولكن من غير مخاطرة ؛ يريدون المسلي ، على أن يكون رصيناً ؛ يريدون النفوذ والتأثير ، على ألا يكون ثمنها غالياً ... أما هي ، فان القضية بالنسبة اليها هي نفسها دائماً : الإغراء ، والإدهاش مع التطمين ؛ النتاج السحري الذي يقلب حياتنا من غير أن يبدّل فيها شيئاً .

وسألت :

ـ هل كنت تطرح على نفسك كثيراً من الأسئلة وأنت صغير ؟
ـ أعتقد ذلك .
ـ ألا تذكر ما هي ؟
ـ لا .

وعاد يستغرق في كتابه . إنه يدّعي انه نسي كل شيء من طفولته . كان له أب من صغار الصناعيين في النورمندي ، واخوان ، وعلاقات طبيعية مع أمه : فليس ثمة أي مبرّر للهرب من ماضيه ، والواقع انه لا يتحدث عنه مطلقاً .

إنه يقرأ . وما دام هـذا الملف يُضجرها ، فبوسعها هي أيضاً أن تقرأ . ماذا ؟ إن جان – شارل مغرمٌ بالكتب التي لا تقول شيئاً . لو تفهم ، إن مـا هو فظيع لدى هؤلاء المؤلفين الشبّان ، هو أنهم لا يكتبون ليرووا شيئاً ؛ انهم يكتبون ليكتبوا ، شأن الذين يصفّون حجراً فـوق حجر ، للاستمتاع ليس غير . لقـد بدأت تقرأ وصفاً لجسر معلق يقع في ثلاثمئة صفحة ؛ فـلم تستطع الصمود عشر دقائق . أما الروايات التي ينصحها لوسيان بقراءتها ، فهي تتحدث عن أشخاص وأحداث بعيدةٍ عن حياتها بُعد مونتفردي .

فليكن . إن الأدب لم يعد يعني شيئاً لي . ولكن عليّ ان اثقف نفسي: فقد أصبحت على غاية الجهل ! كان بابا يقول : « إن لورانس ستكون مثلي : فـأر مكتبة . » وبدلاً من هذا ... لماذا تراجعت خلال السنوات الاولى من زواجها، لقد فهمت سبب ذلـك ، فالحالة تقليدية . الحب ، الامومة ، وإنها لصدمـة انفعالية عنيفة حين تتزوج الفتاة في سن مبكرة ، وحين لا يكون قد قام بـين الادراك والإحساس توازن منسجم. كان يخيّل إليّ أن لا مستقبل بعدُ لي : لقد كان لجان – شارل وللصغيرتين مستقبل ؛ اما أنا ، فلا ؛ وإذن فما جدوى تثقيف نفسي ؟ إنها لدائرة مفرغة : كنت أهمل نفسي ، وكنت أعاني السأم ، وكنت أحسّني أكثر فأكثر منزوعة من نفسي . (وبالطبع كان لانهيارها العصبي أسباب أعمق ، ولكنها لم تكن بحاجة الى علم نفس تحليلي لتخرج منه ؛ لقـد أخذت مهنة أثارت اهتمامـا ؛ فكان أن استردّت نفسها) . والآن ؟ إن القضية قضية

أخرى : فأنا بحاجةٍ الى وقت؛ إن الأفكار التي ينبغي العثور عليها، والشعارات التي يجب تحريرها تتحول الى تسلط . ومع ذلك ، وبعد أن دخلت الى بوبلانف تماماً ، كانت تقرأ الصحف على الأقل ؛ أما الآن فهي تستريح على جان – شارل لتطلع على الأحداث : وهذا غير كافٍ . كانت الآنسة هوشيه تقول : « اتخذوا لأنفسكم رأياً خاصاً » وستصاب بخيبة شديدة إذا رأتني الآن !

ومدّت لورانس يدها الى جريدة « لوموند » التي كانت ملقــاة على طاولة بعمود واحد . إن ذلك لمثبّط ؛ كان ينبغي ألا يُترك طرف الخيط إطلاقــاً ، وإلا فإن المرء يوشك على الغرق : ان كلّ شيء قد بدأ دائماً من قبل . مــا هي « البوروندي » ؟ وما هو الـ « O. C. A. M » ؟ ولماذا يثور الكهنة البوذيون ؟ ومنْ كان الجنرال ديلغادو ؟ وأين تقع غانا تماماً ؟ وتطوي الجريدة ، وقــد تعزّت مع ذلك ، لأن المرء لا يعرف أبداً ماذا عساه يكتشف في ذلك . لقــد جهــدت في أن أصفـّح نفسي ، وهأنذا لست صلبة مثلهم . ان جان – شارل يشرح ذلك بأنه « الجانب التشنجي في النساء » بالرغم من أنــه مؤيدٌ للمرأة . انني أصارع هذا الجانب، وأنا أشمئز من ان أتشنج ، فالأفضل إذن تجنب الفرص المؤدية لذلك .

وتناولت الملفّ من جديد . لماذا نحن موجودون ؟ ليست هــذه مشكلتي . اننا موجودون . والقضية هي ألا نحس بذلك ، وأن نتجه في انطلاقنا ، وأن نمضي دفعة واحدة حتى الموت . لقد تحطمت الانطلاقة منذ خمسة أعوام . وقد وثبت مرة أخرى . ولكن الزمن طويــل ، والمرء يسقط مــرة أخرى . ان قضيتي هي هذا الانهيار ، من حين الى حــين ، كما لو أنه كان ثمة جواب على سؤال كاترين ، جواب مرعب . ولكن لا ! ان التفكير بهذا هو بدء الانزلاق نحــو العُصاب . وأنا لن أسقط مــرة أخرى . انني الآن مستدركة محتاطــة ، انني مسلحة ، وأنا مالكة زمام أمري . والحق انني لا أجهل أسباب أزمتي الحقيقية ، وقد تجاوزتها : لقد بسّطت النزاع الذي ينصب مشاعري ازاء جان – شارل في وجه المشاعر التي أحسُّ بها تجــاه أبي ؛ ان هذا الصراع لا يمزقني بعد . فأنا على

وضوح كامل مع نفسي .

كانت الصغيرتان نائمتين ، وكان جان – شارل يقرأ . وفي مكان ما كان لوسيان يفكر فيها . وكانت تحس حياتها حولها ، ممتلئة ، حارة ، عشاً فيلجة ، ويكفي شيء من الاحتراس حتى يعجز كلُّ شيء عن صَدْع هذه الطمأنينة والأمان .

الفصل الثاني

« لماذا يريـــد جيلبير أن يراني ؟ » كانت جميع بيوت « نويي » ، في قلب الحدائق المبتلّة التي تنبعث منهـــا رائحة الخريف والريف ، أشبه بعيادات .
« لا تحدّثي في ذلك دومينيك » . وكان في صوتــه خوف . هل هو سرطان ؟ أم أنه القلب ؟

— شكراً لك أنك جئت .

انسجام في الألوان الرماديـــة والحمراء ، موكيت سوداء ، كتب نادرة على الرفوف الخشبية الثمينة ، لوحتان عصريتان تحملان توقيعين ثمينين ، مجموعـــة آلات إنتاج الصوت ، بار : هوذا مكتب الملياردير الذي يُراد بيعُه لكل زبون بثمن قطع قماش للأثاث أو رفّ من خشب الصنوبر .

— قليل من الويسكي ؟

— لا شكراً (إن في حلقها عقدة) ماذا هنالك ؟

— عصير فاكهة ؟

— موافقة .

فقدّم لها عصير الفاكهة ، ووضع قطع الثلج في قدحه ، على مهل . لأنه كان متعوداً على إجراء اللعبة وعلى ألاّ يتكلم إلاّ في ساعته : أم أنه مرتبك ؟

— إنك تعرفين دومينيك جيداً : وتستطيعين أن تقدّمي لي نصيحة .

القلب ، أم هو سرطان . فلكي يطلب جيلبير نصيحة من لورانس ، لا بـدّ أن الأمر خطير . وسمعت كلاماً بقي معلقاً في الهواء ، مجرداً من المعنى :

— إنني مغرم بفتاة صبية .

— ماذا تعني ؟

– مغرم . عاشق . فتاة في التاسعة عشرة !

ورسم فمه بسمة مستديرة ، وتكلم بصوت أبوي ، كما لو أنـــه كان يشرح لامرأة متخلفة حقيقة بسيطة جداً :

– ليس من النادر اليوم أن تحب فتـــاة في التاسعة عشرة رجلاً يتجاوز الخمسين .

– أهي تحبك أيضاً ؟

– نعم .

وصاحت لورانس ، بغير صوت ، لا . ماما ! يا لأمي المسكينة ! إنهـــا لا تريد أن تسأل جيلبير ، ولا تريد أن تساعده على توضيح مـــا يقول . ولزم هو الصمت . واستسلمت هي . إنها ليست على مستواه :

– وإذن ؟

– وإذن ، فسنتزوج .

وهذه المرة صرخت بصوت عال :

– ولكن هذا مستحيل .

– إن ماري – كلير تقبل الطلاق . فهي تعرف باتريسيا وتحبها كثيراً .

– باتريسيا ؟

– نعم . ابنة لوسيل دوسان شامون .

فردّدت لورانس :

– هذا مستحيل !

لقــد رأت باتريسيا ذات مرة ، وكانت طفلة في الثانيـــة عشرة ، شقراء متصنّعة ؛ وصورتها في العام الماضي وهي ترتدي ثوباً أبيض في حفلة راقصة ؛ ديك رومي فاتن ، مفلسة تقذف بها أمها بين أذرع الأغنياء .

– إنك لن تترك دومينيك : سبعة أعوام !

– بل من أجل هذا بالذات !

واتخذ لهجته الوقحة ، واستدار فمــه مُطلقاً بسمة . إنـــه بكل بساطة

متوحّش . وأحسّت لورانس قلبها يخفق ، قوياً جداً ، سريعاً جداً ! ورأت واحداً من هذه الكوابيس التي لا يعرف المرء هل تحدث له حقاً أو أنه يشهد فيلماً من أفلام الرعب . إن ماري - كلير توافق على الطلاق ؛ طبعاً ، فهي سعيدة أكثر مما ينبغي أن تلعب دوراً قذراً مع دومينيك .

- ولكن دومينيك تحبك . وهي تعتقد أنكما ستنهيان حياتكما جنباً الى جنب . إنها لن تحتمل أن تُهجَر .

قال جيلبير :

- بل ستحتمل ، ستحتمل .

وصمتت لورانس ؛ إنها تعلم أن جميع الكلمات غير مُجدية .

- كفى ، لا تتخذي هذه الهيئة المتبرّمة . إن لأمك قوة ونفوذاً . إنها تدرك أن امرأة في الواحدة والخمسين هي أكبر سناً من رجل في السادسة والخمسين . إنها حريصة على عملها ، وعلى حياتها الاجتماعية ، وستكون عاقلة . غير أنني أتساءل ، وها هنا أريد أن أستشيرك ، ما هي أفضل طريقة لتقديم الأمور لها .

- ستكون جميع الطرق رديئة .

ونظر جيلبير الى لورانس بهذه الهيئة المسحورة التي أكسبته شهرة الساحر :

- إنني شديد الثقة بحُكمك . فهل ترين أن أقول لها فقط إنني لا أحبها بعد ، أو أن أحدثها مباشرة عن باتريسيا ؟

فقالت لورانس بابتهال :

- لا تفعل ، إنها لن تحتمل هذا .

- سأتحدّث اليها بعد ظهر الغد، فتدبّري أمرك لكي تريْها في نهاية النهار . ستكون بحاجة الى أحد . وستخابرينني لتبلغيني ردّ فعلها .

قالت لورانس :

- آه ! لا ، لا !

- القضية هي إيجاد الطريقة لإيذائها بأقلّ قدر ممكن ، بل أنا أود لو

أستطيع الاحتفاظ بصداقتها ؛ وهذا من أجلها هي .

ونهضت لورانس فاتجهت نحو الباب ، فقبض على ذراعها :

ـ لا تحدّثيها عن هذا الحوار .

ـ سأفعل ما يروق لي .

وتمتم جيلبير خلفها بعض الكلام العابث ، ولم تمــدّ له يدها ، بل صفقت الباب ؛ إنها تكرهه . وكان عزاءً لها أن تعترف لنفسها فجأة : « لقد احتقرت جيلبير دائماً . » وسارت وهي تسحق الأوراق الميتـــة ، وكان الخوف حولها كثيفاً كالضباب ؛ ولكنّ هناك حقيقةً مضيئة ، قاسية ، كانت تخرق هـــذه الظلمات : « إنني أكرهـــه ! » وفكرت « وستكرهه دومينيك ! » وشعرت بأنها فخور ، وقوية . « إن المرأة الحقيقية لا تتصرّف تصرّف الخيّاطات » سوف تتألم ، ولكن كبرياءها ستنقذها . دور شاقّ ولكنه جميـل : المرأة التي تتقبّل القطيعة ولكن بأناقة . سوف ترتمي في العمل ، وستتخذ لهـــا عشيقاً جديداً ... وماذا يحدث لو ذهبت أنا بنفسي أبلغها على الفور ؟ وظلت لورانس جالسة ، جامدة ، على مقود سيارتها . وسالت عرقاً فجأة ، وأخذتها الرغبة في القيء . من المستحيل أن تستمع دومينيك الى هذه الكلمات التي يريد جيلبير أن يقولها لها . سيحدث شيء ما : سيموت في الليل ، أو هي تموت . أو تُنسَف الأرض .

غداً هو اليوم ؛ ولم تُنسَف الأرض . وأوقفت لورانس سيارتهـــا في ممر مسمَّر ، غير مبالية بالمخالفة . وكانت قـــد خابرت من المكتب ثلاث مرات وسمعت الجرس : مشغول . لا بدّ أن دومينيك قد رفعت السماعة . وصعـدت في المصعد ، ومسحت يديها الدبقتين . المهم أن تبدو طبيعية .

ـ هل أزعجك ؟ انني لم أنجح في الاتصال بك تليفونيـــاً ، وكنت أريد استشارتك بأمر .

وكان هـذا مختلقاً برمّته ، فهي لا تستشير أمها في شيء ، ولكن دومينيك لم تكد تصغي اليها :

– ادخلي .

وجلستا في زاويـة « الاستراحة – الصمت » في الصالون الكبير الملبّـد الجدران. وكان في أحد الأواني باقةٌ ضخمة من الزهر الأصفر الحادّ الذي يشبه عصافير شريرة . وكانت عينا دومينيك متورمتين . أهي تبكي إذن ؟ وقذفتْ بلهجة تحدٍّ تـكاد تكون منتصرة :

– عندي خبر جميل أرويه لك .

– ما هو ؟

– لقد أخبرني جيلبير انه يحبّ امرأة أخرى .

– إن هذا مزاح ! ومَنْ هي ؟

– لم يقل لي اسمها . غير أنه شرح لي انه لا بد « من أن نضع علاقاتنا على صعيد آخر » . يا للصيغة الجميلة ! وهو لن يأتي الى « فوفرول » في نهاية هـذا الاسبوع ...

وارتعش الصوت الصافر بالحقد :

– إنه إذن يتركني ! ولكنني سأعرف من هي هذه المرأة ، وأقسم لك انني لن أعاملها معاملة حسنة !

وتردّدت لورانس : هل تنتهي من القضية كلها ؟ وخانتها شجاعتها ، وكانت خائفة . الأفضل كسب الوقت .

– ليس هذا ، بلا شك ، إلا هوًى صغيراً .

– ليس لدى جيلبير أية أهواء ؛ ليس لديه إلا إرادات .

وندّ منها زعيق مفاجىء :

– النذل القذر !

فأخذت لورانس أمها من كتفيها :

– لا تصرخي .

ـ بل سأصرخ ما حلا لي الصراخ . نذلٌ قذر ! نذر قذر !

وما كانت لورانس لتستطيع أن تتخيّل أمها وهي تصرخ هكذا ، ولا أن تتخيّل أحداً يصرخ هكذا : إنه أشبه بتمثيلية رديئة . هذا مقبول في المسرح؛ أما في الحيـــاة .. وظلّ الصوت يرتفع ، حادّاً ، غير محتشم في دفء زاوية الاستراحة الصمت :

ـ نذل قذر ! نذل قذر !

(وفي صالون آخر ، مختلف كل الاختلاف ، شبيه كل الشبه ، مع أوان ملأى بالزهور الفاخرة ، كان الصراخ نفسه يخرج من فم آخر : « نذل قذر ! »)

وانهارت دومينيك على الديوان ، وأخذت تجهش :

ـ هل تتصورين ذلك ؟ أن يفعل ذلك معي أنا ! إنـــه يتركني كما تُترك الخيّاطات !

ـ ألم تكوني تشعرين بشيء ؟

ـ على الإطلاق . لقد خدعني تماماً . وانت قد رأيته يوم الأحد المـاضي : كانت بسمته تملأ الدنيا .

ـ ما الذي قاله بالضبط ؟

فانتصبت دومينيك ، وأمرّت يدها في شعرها ، وكان دمعها يسيل :

ـ إن عليه أن يصارحني بالحقيقة . إنه يقدّرني ، وهو معجب بي ؛ الكلام الفارغ المألوف . ولكنه يحبّ امرأة أخرى .

ـ ألم تسأليه عن اسمها ؟

فتمتمت دومينيك بين أسنانها :

ـ لقد أُسقط في يدي .

ومسحت عينيها :

ـ إنني أسمعهنّ من هنا ، جميع الصديقات الصغيرات الطيبات : إن جيلبير مورتييه قد هجر دومينيك . كم سيطربن ويهللّن !

ـ استبدلي به آخر على الفور : هناك عدد كاف من الرجال الذين يغازلونك .

ـ أصدّقهم تماماً : إنهم وصوليون صغار ...

ـ سافري الى الخارج ؛ أظهري لهم انك تستطيعين أن تستغني عنه . إنه نذل قذر ، وأنتِ على حق في ذلك . تدبّري أمرك لتنسيْه .

ـ سيكون مسروراً بهذا أكثر مما ينبغي ! إن هذا يناسبه تماماً !

ونهضت وراحت تذرع الصالون جيئة وذهاباً :

ـ سوف أستردّه . بطريقة أو بأخرى ...

ونظرت الى لورانس بعينين ينبعث منهما الشرّ :

ـ لقد كان حظّي الأخير . إفهمي هذا .

ـ ولكن لا .

ـ كفى ، كفى ! إن من كانت في الواحدة والخمسين لا تصنع حياتها من جديد .

وردّدت بصوت أحمق :

ـ سوف أسترده ! رضى أو قسراً !

ـ قسراً ؟

ـ إذا وجدت وسيلة للضغط عليه .

ـ أية وسيلة ؟

ـ سأبحث عنها .

ـ ولكن ماذا يجديك أن تحتفظي به ، إن كان ذلك قسراً ؟

ـ أن أحتفظ به . لن أكون امرأة مهجورة .

وعادت تجلس مسمّرة العينين ، مزمومة الفم . وتكلمت لورانس ، فقالت كلماتٍ كانت قد تلقتها من شفتي أمها ؛ كرامة ، هدوء ، شجاعة ، احترام الذات ، الظهور بالمظهر الجيّد ، التصرف على نحو كريم ، تمثيل الدور الجميل . ولم تجب دومينيك بشيء . ثم قالت بصوت متعَب :

ـ عودي الى بيتك . أنا بحاجة الى التفكير . وتلطّفي بمخابرة آل بتريداس بأني مصابة بالتهاب في اللوزتين .

– هل تستطيعين أن تنامي ؟

– على كل حال لن أبالغ في تناول المنوّمات ، إن كان هذا هو ما يقلقك .

وتناولت يدي لورانس ، في حركة غير مألوفة ، مزعجة ؛ وتشنجت أصابعها على الرسغين :

– حاولي أن تعرفي من تكون هذه المرأة .

– إنني لا أعرف وسط جيلبير .

– حاولي مع ذلك .

وهبطت لورانس السلّم على مهل . وكان شيء ما يختلج في صدرها ويمنعها من التنفّس . إنها تؤثر أن تذوب حناناً وحزناً . ولكن هناك هذه الصرخة في مسمعها ، وهي ترى من جديد تلك النظرة الشريرة . غضب وكبرياء جريح ، ألم أشد تمزيقاً من عذاب الحبّ : ولكن بلا حب . من ذا الذي يحب جيلبير حباً حقيقياً ؟ ودومينيك أتراها قد أحبّت يوماً ؟ هل تستطيع أن تحب ؟ (كان يمشي في البيت كأنه روح معذّبة ، كان قد أحبها ، وكان ما يزال يحبها . وكانت لورانس تذوب حزناً وحناناً . ومنذ ذلك الحين ، أحاط بدومينيك ما يشبه هالةً مؤذية .) إن عذابها بالذات لا يؤنسنها . إنه أشبه بسماع صرير سرطان بحري ، أو ضجة غير واضحة ، لا توحي بشيء إلا بالألم العاري . إنه أشدّ استعصاء على الاحتمال مما لو كان بالإمكان مشاطرته .

* * *

كنت أحاول ألاّ أسمع ، ولكن السرطان البحري كان ما يزال يصرّ في أذنيّ حين بلغت المنزل . وكانت لويز تخفق بياض البيض في المطبخ ، تحت رقابة غويا ، فقبلتها .

– هل عادت كاترين ؟

– إنها في غرفتها ، مع بريجيت .

وكانتا جالستين إحداهما قبالة الأخرى ، في الظـــلام . وأضاءت النور ، فنهضت بريجيت :

– مساء الخير يا سيدتي .

ولاحظت على الفور الدبّوس الضخم المزروع في كفـــاف تنورتها : كنت أعرف من كاترين انها ابنة لا أم لها ؛ وكانت طويلة ، هزيلة، ذات شعر كستنائي قصير ورديء التسريح ، وكانت ترتدي كنزة ذات لون أزرق حائل، ولو كانت أكثر ترتيباً لاستطاعت أن تكون جميلة . وكانت الغرفة مضطربة بكراسيها المقلوبة ووسائدها الملقاة أرضاً .

– انني سعيدة بالتعرّف عليك .

وقدلت كاترين :

– بمَ تلعبانِ ؟

– كنا نتحدث .

– وهذه الفوضى ؟

– اوه ؟ كنا منذ حين مع لويز نقوم بأعمال جنونية .

قالت بريجيت :

– سننظم الغرفة .

– ليست القضية مستعجلة .

وأوقفت كرسياً فجلست عليه . كنت لا أبالي أن يكنّ قد ركضن وقفزن وقلبن الأثاث ؛ ولكن عمّ كانتا تتحدثان حين دخلت ؟

– عمّ كنتما تتحدثان ؟

فقالت كاترين :

– هكذا ، كنا نتحدث .

وكانت بريجيت واقفة قربي تتفحّصني بلا وقاحة ، ولكن بفضول واضح . وكنت منزعجة بعض الشيء . إن البالغين لا ينظرون إلى بعضهم حقـــاً . أما هاتان العينان ، فقـــد كانتا ترياني . وتناولت من على الطاولة « دون

كيشوت » – نص مختصر ومصوّر – الذي كانت كاترين قد أعارته إلى صديقتها .

– هل قرأته ؟ وهل أحببته ؟ ولكن اجلسي .

فجلست :

– لم أتمّه .

وبسمت لي بسمة جميلة جداً ، بعيدة عن أن تكون طفولية ، بل هي لا تخلو من تظرُّف :

– انني أضجر إذا كان الكتاب طويلاً أكثر مما ينبغي . ثم انني أفضّل القصص الحقيقية .

– القصص التاريخية ؟

– نعم . والرحلات ؛ وما يُقرأ في الصحف .

– هل يتركك البابا تقرأين الصحف ؟

فبدت عليها الدهشة ، ثم تمتمت بصوت متردد :

– نعم .

وفكرت بأن أبي على حقّ ، فأنا لا أراقب كل شيء . فماذا لو أنها كانت تحمل الجرائد الى الليسيه ، وتروي ما قرأته فيها ... جميع هذه الأخبار الفظيعة : الأطفال المقتولون ، الأطفال الذين تُغرقهم أمهاتهم بالذات ...

– هل تفهمين كل شيء ؟

– أخي يشرح لي .

إن أخاها طالب ، وأباها طبيب . وحيدة بين رجلين . لا بدّ أنها لا تُراقب كثيراً . إن لوسيان يدّعي أن الفتيات الصغيرات اللواتي لهن أخوة أكبر منهنّ ، ينضجن أسرع من الأخريات : وربما كان بسبب ذلك أنها قد بدأت تتخذ حركات امرأة صغيرة .

– ماذا تنوين أن تفعلي فيما بعد ؟ هل لديك مشاريع ؟

فتبادلتا نظرة متواطئة ، وقالت كاترين :

– سأكون طبيبة . أما هي فستكون عالمة زراعية .

– عالمة زراعية ؟ هل تحبين الريف ؟

– إن جدي يقول إن المستقبل متوقف على العلماء الزراعيين .

ولم أجرؤ على أن أسألها من يكون جدّها ذاك . ونظرت ساعتي . كانت الثامنة إلا ربعاً .

– يجب على كاترين أن تذهب فتستعدّ للعشاء . وأعتقد انهم في منزلكم ينتظرونك أنتِ أيضاً .

فقالت بلهجة لامبالية :

– اوه ! إنهم عندنا يتناولون العشاء حين يريدون . وبالتأكيد ليس في البيت أحد الآن بعد .

أجل ، كانت حالتها واضحة . فتاة صغيرة متروكة تعلّمت أن تكفي نفسها بنفسها . ولم يكن يُسمح لها أو يمنع عنها شيء ؛ وكانت تنمو بالاتفاق . كم تبدو كاترين ، بالمقارنة ، طفولية ! وقد كان لطيفاً لو تدعوها للعشاء . ولكن جان – شارل يكره ما ليس متوقعاً . ولست أدري ، انني غير حريصة على أن يلتقي بريجيت .

– لقد آن أن تعودي الى البيت على كل حال . ولكن انتظري ، سأرفو لك تنورتك .

فأصبحت أذناها محمّرتين كلياً :

– أوه ! لا ضرورة لذلك .

– بلى ، فهذا قبيح .

– سأصلحها حين أعود الى البيت .

– دعيني على الأقل أسوّي الدبوس .

وسوّيته ، فبسمت لي :

– إنك لطيفة !

– أود لو نتعارف أفضل من ذلك . فهل يروق لك الذهاب يوم الخميس الى

« متحف الإنسان » مع كاترين ولويز ؟

— اوه ! نعم .

وصحبت كاترين بريجيت حتى الباب . وقد تهامستا وضحكتا . كنت أود لو أجلس في الظلام مع فتـــاة صغيرة من عمري وأن أضحك وأهمس . ولكن دومينيك كانت تقول دائماً : « إن رفيقتك هي بكل تأكيد لطيفة ، ولكنها يا حبيبتي عادية جداً . » وقـــد كان لمارت صديقة ، هي ابنة صديقٍ لأبي ، مغلقة وبليدة . أما أنا فلم تكن لي صديقة قط .

— انها لطيفة ، صديقتك الصغيرة .

— إننا نتسلّى كثيراً معاً .

— هل تحرز علامات جيدة ؟

— اوه ، نعم ، أحسن العلامات .

— إن علاماتك أضعف مما كانت في مطلع الشهر . فهل أنت متعَبة ؟

— لا .

ولم ألحّ .

— إنها أكبر منك سناً : ولهذا يسمحون لهـــا أن تقرأ الصحف . ولكنك تذكرين ما قلته لك : إنك أنتِ ما تزالين أصغر مما يجب .

— أذكر ذلك .

— ولن تعصَيْ أمري ؟

— لا .

وكان في صوت كاترين بعض التردّد .

— لا يبدو عليك انك مقتنعة جداً .

— بلى . ولكن ما ترويه لي بريجيت ، ليس صعباً على الفهم .

فأحسستني مرتبكة . إن بريجيت تروق لي . ولكن هل يكون لهـــا تأثير طيّب على كاترين ؟

— من الغريب أنها تريد أن تكون عالمة زراعية : هل تفهمين ذلك ؟

– أنا أفضل أن أكون طبيبة . سأشفي المرضى ، وهي ستُنبت القمح والطماطم في الصحارى ، فيتاح للجميع أن يأكلوا .

– هل أريتها الاعلان الذي يبدو فيه الطفل الجائع ؟

– هي التي أرتني إيّاه .

طبعاً . وأرسلتها تغسل يديها وتسرّح شعرها ، ودخلت غرفة لويز . كانت جالسة إلى طاولتها ترسم . وتذكّرت . الغرفة المظلمة ، وفيها مصباح صغير مضاء ، وأقلام التلوين ، وخلفي نهار طويل مطرّز بلذاذات صغيرة ، والعالم في الخارج ، شاسع عجيب . لحظات ثمينة ضائعة الى الأبد . أية خسارة ! تمنعهنّ من أن يكبرن . أو ماذا ... إذن ؟

– إن رسمتك جميلة ، يا حبيبتي .

– إنني أعطيك إياها .

– شكراً . سأضعها على الطاولة . هل تسلّيت جيداً مع بريجيت ؟

– لقد علمتني بعض الرقصات ...

وداخل صوت لويز الحزن :

– ولكنها بعد ذلك طردتاني .

– كانتا تريدان أن تتحدثا . وهكذا استطعت أن تساعدي غويا في إعداد العشاء . وسيكون بابا معتزّاً حين يعلم أنك أنت تقريباً من أعدّ العجّة .

فضحكت ، ثم سمعنا المفتاح يُدار في القفل فأسرعت لاستقبال أبيها .

كان ذلك أمس . ولورانس قلقة . إنها تستعيد بسمة بريجيت : « أنت لطيفة » فترقّ لها . إن من الممكن لهذه الصداقة أن تفيد كاترين ؛ إنها في سنّ الاهتمام بما يجري في العالم ؛ أما أنا فلا أحدّثها عنه بما فيه الكفاية ، وأبوها يخيفها ؛ ولكن ينبغي كذلك ألا تُحدث لها مضاعفات . إن جدّيْ بريجيت لأمها يعيشان في إسرائيل ، وقد قضت العام الماضي معهما ، وهذا ما جعلها تتأخر في دروسها . تُرى هل كان في أسرتها موتى ؟ وجميع تلك الفظائع التي جعلتني أبكي طويلاً ، هل روتها لكاترين ؟ يجب أن أكون متنبّهة ، وأن أكون

مطلّمة ، وأن أرشد ابنتي بنفسي .

وحاولت لورانس أن تركز فكرها على « فرانس – سوار ». هـــذه أيضاً حادثة فظيعة . في الثانية عشرة من عمره : شنق نفسه في سجنه ؛ لقـــد طلب موزاً ومنشفة ؛ فشنق نفسه . « نفقات صغيرة غير متوقعة » كان جيلبير يشرح بأن في كل مجتمع بالضرورة نفقات صغيرة غير متوقعة . نعم ، بالضرورة . هذا لا يمنع أن هذه القصة ستهز كاترين .

جيلبير . « مغرم ، عاشق » أي نذل قذر ! لقد زعقت دومينيك في زاوية الاستراحة الصمت : « نذل قذر ! » وهذا الصباح ، قـــالت في التلفون بصوت معتم إنها نامت جيداً ، ثم أغلقت السماعة بسرعة . مـــا الذي أستطيع أن أعمل من أجلها ؟ لا شيء . من النادر جداً أن يستطيع أحد أن يعمل شيئاً من أجل شخص آخر ... من أجل كاترين ، بلى . فيحسُن إذن أن أفعله . أن أعرف كيف أجيب على أسئلتها ، بل أن أسبقها . أن أجعلها تكتشف الحقيقة من غير إخافتها . من أجل هذا عليّ أولاً أن أستعلم . إن جان – شارل يأخذ عليّ أني لا أهتم بعصري ؛ فيجب أن أطلب منه أن يدلني على كتب . وأن أجبر نفسي على قراءتها . وليس جديداً هذا المشروع . إن لورانس تتخذ قرارات دورية ، ولكن من غير أن تنوي حقاً تنفيذها – لماذا حقاً ؟ – أمـــا هذه المرة ، فالأمر مختلف . إن القضية هي قضيـــة كاترين . وهي لن تغفر لنفسها أن تقصّر في ذلك .

قال لوسيان :

– حسنٌ أنك هنا .

كانت لورانس جالسة ، بالروبديشامبر ، على الأريكة الجلدية ، وهو عنـــد قدميها ، بالروبديشامبر ، ووجهه مرتفعٌ إليها .

– أنا أيضاً سعيدة .

– أتمنى لو تكونين دائماً هنا .

وكانا قد قاما بفعل الحب ، وتناولا عشاء خفيفاً ، وثرثرا ، ثم قاما مرة أخرى بفعل الحب . وكانت راضية مسرورة في هذه الغرفة ؛ كان ثمة سرير – ديوان مغطى بفرو ، وطاولة ، وأريكتان من الجلد الأسود مبتاعتان من سوق القمل ، وبعض الكتب على رف ، ومنظار فلكي وخريطة لدائرة الأرياح ، وآلة السُّدس ومزلاجان وحقائب من جلد الخنزير في إحدى الزوايا؛ لم يكن ثمة بذخ، فكل شيء لامبالٍ ، ولكن لم يكن هناك مجال للتعجب أن يحتوي المشجب هذا العدد الوافر من الأثواب الأنيقة ، والسترات من جلد الغزال ، والكنزات من الكشمير ، والوشاحات والأحذية .

وشق لوسيان ثوب لورانس فلامس ركبتها :

– إن لك ركبتين جميلتين . نادرة هي الركب الجميلة .

– إن الك يدين جميلتين .

إن جسمه دون جسم جان – شارل جمالاً ؛ إنه أشد هزالاً مما ينبغي ؛ ولكنّ يديه دقيقتان وعصبيتان ، ووجهه متحرك حساس ، ولحركاته جمال متعرج . إنه يعيش في عالم من لبد ، مليء بالفروق والألوان الخفيفة الفاتحة والغامقة ؛ في حين أن الوقت بالقرب من جان – شارل هو دائماً وقت ظهر : نورٌ متساوٍ قاس .

– هل تريدين أن تشربي شيئاً ؟

– لا ، ولكن اشرب أنت .

فصبّ لنفسه قدح بوربون من صنع نادر ، كما يبدو . كان الطعام قليلاً ما يهمّه ، ولكنه في مادة الكحول والخمور يعتز بأنه من العارفين ، وعاد يجلس عند قدمي لورانس :

– أراهن أنك لم تثملي قط .

– إنني لا أحب الكحول .

– لا تحبينه أم تخافين منه ؟

فلامست الشعر الأسود الذي كان يحتفظ بعذوبة طفولية :

– لا تمثل معي دور عالم النفس .

– ذلك أنك امرأة صغيرة طيبة ليس من السهل فهمها . فأنت أحياناً شابه ، مرحة ، قريبة جداً ، وأحياناً أخرى مينرفا ملعونة ذات قبعة .

كانت في البدء تحب أن يحدثها عن نفسها ؛ وجميع النساء يحببن ذلك ، ولم يكن جان – شارل قد أفسدها في هذه الناحية ، ولكن ذلك كان في الحقيقة بلا فائدة . كانت تعرف أكثر مما ينبغي ما كان يهم لوسيان ، أو بالأحرى ما كان يقلقه :

– ماذا ! كل شيء متوقف على تسريحة شعري .

وأراح رأسه على ركبتيها :

– دعيني أحلم خمس دقائق أننا سنبقى كذلك طوال الحياة . سوف يشيب شعرنا حتى من غير أن نحس بذلك . وستكونين سيدة عجوزاً رائعة .

– إحلم يا حبيبي .

لماذا تراه ينطق بهذه الحماقات ؟ إن حباً لا ينتهي يشبه ما تقوله الأغنية : « هذا غير موجود ، هذا غير موجود » . ولكن الصوت الكئيب أثار فيها ما يشبه صدى ملتاثاً لشيء قد سبق أن عيش ، في حياة أخرى ، أو ربما في هذه اللحظة ، على كوكب آخر . إنه لشيء متسلل ، خطر ، كأنه العطر ، ليلاً في غرفة مغلقة – عطر نرجس . وقالت بلهجة لا تخلو من جفاف :

– ستتعب مني .

– على الإطلاق .

– لا تكن رومانتيكياً .

– منذ حين انتحر طبيب ويده في يد زوجته التي كانت قد ماتت منذ أسبوع . هذا يحدث ...

فسألت وهي تضحك :

– ولكن ما هي الموتيفات ؟

فقال في عتاب :

– إنني لا أمزح .

لقد تركت الحديث يتخذ ببلادة وجهة عاطفيــة ، ولن يكون من اليسير أن تذهب . وقالت وهي تضغط يدها على خد لوسيان :

– إنني لا أحب أن أفكر بالمستقبل . فالحاضر يكفيني .

– هل هذا صحيح ؟

ونظر إليها بعينيه اللتين كانت صورتها تلمع فيهما ببريق لا يمكن مقاومته :

– إنك لا تعانين السأم معي ؟

– أية فكرة ! إنني معك أقل سأماً مني مع أي إنسان آخر .

– جواب عجيب !

– ذلك انك تطرح أسئلة عجيبة . هل كان يبدو عليّ السأم من هذا المساء ؟

– لا .

إن حديث لوسيان مسلّ . وهما معاً يتساءلان عن جماعــة بويلانف ، وعن الزبائن ، ويخترعان لهم مغامرات . أو يروي لوسيان روايات قرأها ، ويصف أمكنة رآها ، وهو يُحسن ايراد التفصيل الذي يوقظ في نفس لورانس رغبـــة خفية في القراءة وفي السفر . لقـــد تحدّث الساعة عن فيتز جرالد الذي لم تكن تعرفه إلا اسماً ، ويدهشها أن حياة غير واقعية الى هذا الحدّ قد أمكن أن تُعاش حقاً .

وقالت :

– لقد كانت أمسية ممتازة .

فانتفض :

– لماذا تقولين ذلك ؟ لقد كانت ... انها لم تنتهِ ...

– الساعة الثانية صباحاً . يجب يا حبيبي أن أعود إلى المنزل .

– كيف ؟ ألا تنامين هنا ؟

– إن الطفلتين أكبر مما ينبغي ، وذلك يصبح خطراً .

– اوه ! أرجوك .

– لا .

غالباً ما كانت تقول : لا ، في العام الماضي ، حين كان جان – شارل في مراكش . كانت تذهب ، ثم كانت توقف السيارة فجـأة ، فتستدير نصف استدارة وتعود فتصعد السلم وهي تعدو . وكان يشدّها بين ذراعيه : « لقـد عُدت ! » وكانت تبقى حتى الفجر . بسبب ذلك الفرح على وجهه . ربما كان ذلك فخاً ككل الأفخاخ . أما اليوم فلن تعود . وهو يعرف ذلك .

– ماذا إذن ؟ أتراك لن تقضي معي ليلة من هذه الليالي ؟

فتصلّبت . وكان قد أقنع نفسه بأنها ستنام معه في أثناء غياب جان – شارل . ولكنها لم تعد بشيء .

– تصور أن ابنتيّ عرفتا . إن المخاطرة أكبر مما ينبغي .

– كنت تقومين بها في العام الماضي .

– وكنت أعاني من ذلك تبكيتاً في الضمير .

ونهضا كلاهما . وخطا في الغرفة خطوات واسعة وانزرع أمامها . والغضب بادٍ عليه :

– النغمة نفسها دائماً ! خائنة لزوجها بعض الشيء جانبياً ، ولكنها زوجة صالحة ، وأم صالحة . لماذا ليس ثمة كلمة تعني عاشقة رديئة ، عشيقة رديئة ...

واختنق صوته ، واضطرب نظره :

– هذا يعني أننا لن نقضي بعدُ أبداً ليلة معاً : لن تكون لنا فرصة أفضل.

– ربما بلى .

– لا . لأنك لا تخلقين مثل هذه الفرصة . اعترفي بأنك لا تحبينني بعد .

– لماذا تراني هنا إذن ؟

– إنك لا تحبينني بعد كالسابق . فمنذ عدت من العطلة أراك متغيرة عـن ذي قبل .

– أؤكد لك أن بلى . لقد قامت بيننا هذه المنازعة عشرين مرة ، من قبل.

دعني أرتدي ثيابي .

وصبّ لنفسه قــدحاً آخر بينما اتجهت نحو الحمام ذي الرفوف المغطـاة بالزجاجـات والأواني . كان لوسيان يجمع العطور والدهون التي كان الزبائن يهدونها الى بوبلاف ، يجمعها للتسلية ولكن كذلك لأنــه كان يهتم اهتماماً دقيقاً بشخصه. بكل تأكيد سأسحق ندمي ، لو أن الأمر كان كالسابق ؛ الاضطراب الذي يصعق ، الليل الذي يُشع ، دوامات الشهوات واللذائذ : إن بوسعنـا أن نخون، ونكذب، ونجازف بكل شيء من أجل هذه التغيرات ؛ ولكننا لا نفعل ذلك من أجل هذه المداعبات اللطيفة. من أجل لذة شبيهة الى هذا الحد بتلك التي تتوفر لها مع جان — شارل ، لا من أجل هذه الانفعالات الهادئة التي هي جزء من الحياة اليومية . وقالت في نفسها : حق الخيانة الزوجيـة ، شيء وظيفي . إن تلك المنازعات التي كانت تحرّكها الى ذلك الحد ، اصبحت الآن ترهقها .

وحين عادت الى الغرفة ، كان قد أفرغ قدحه الثاني .

— لقد فهمت ، فاذهبي . لقد أردتِ مغـامرة بدافع الفضول لأنك بالرغم من كل شيء تعتبرين نفسك حمقاء إن لم تخوني زوجك قط ... ولكن ليس أكثر من ذلك . وما لي أنا من أبله ، أنا الذي كنت أحدّثك عن الحب الخالد .

— هذا خطأ .

واقتربت ، وعانقته :

— إنني شديدة التعلق بك .

— شديدة التعلق ! وأنا لن أحصل من حياتك أبداً إلا على فتات . ولقد استسلمت لذلك . ولكن إذا كان لا بد من منحٍ أقل من ذلك أيضاً ، فالأفضل أن نقطع صلتنا .

— إنني أفعل ما أستطيع .

— أنت لا تستطيعين أن تزعجي زوجك ولا ابنتيك ؛ أمـا تعذيبي ، فتستطيعينه .

— انني لا أريد أن تتعذب .

– كفى ، كفى . إن الأمر لديك سواء تماماً . لقد كنت أظنك مختلفة عن الآخرين ؛ ويكاد المرء يقول أحياناً إن لك قلباً . ولكن لا ، فما عسى القلب أن يجدي بالنسبة لامرأة تريد أن تنطلق ، امرأة حرة ناجحة في الحياة ؟

وظل يتكلم ويتكلم . حين يشعر جان – شارل بما يزعجه ، يلزم الصمت . أما لوسيان فيتكلم . طريقتان . وصحيح إني منذ الطفولة تعلمت أن أسيطر على قلبي . أهذا خير أم شر ؟ سؤال لا جدوى منه ، فالإنسان لا يصنع نفسه من جديد .

– إنك لا تشربين ولا تغضبين ، ولم أرك مرة واحدة تبكين ، إنك تخافين أن تضيعي نفسك : وأنا أسمي هذا رفض الحياة .

وأحست بالسهم يصيبها ، من غير أن تدري في أي مكان من نفسها :

– إنني لا أستطيع شيئاً . هكذا أنا .

فقبض على رسغها :

– هل تدركين انني منذ شهر وأنا أنتظر هذه الليالي . كنت أحلم بها طوال الليالي .

– لقد أخطأتُ إذن : كان علي أن أخبرك !

– لم تفعلي ذلك : فابقي إذن !

فتحلّلت منه برفق :

– فكّر في الأمر : فلو خالجت جان – شارل شكوك لأصبحت قصتنا مستحيلة .

– لأنك ، بالضرورة ستضحيّن بي ؟

– لا َنعُدْ الى هذا .

– لا . أنا أعلم جيداً انني خسرت .

وَعذُب من جديد وجه لوسيان فلم يكن في عينيه بعد إلا حزن كبير . وقال :

– وإذن ، فإلى الغد .

— الى الغد ، ستكون لنا أمسية جميلة .

وقبلته ، فلم يبادلها قبلتها ؛ وكان ينظر اليها بهيئة متألمة .

ولم تكن تحسّ بالشفقــة ؛ بل كانت تشعر على الأصح ، إذ هي تعود الى سيارتها ، بنوع من الحسد . لقد سبق لها أن تألمت ، في مدينة الهافر ، تلك الليلة التي صرّح فيها بأنه كان يفضل أن يتراجع على الفور : وكان ذلك في بدء علاقتهما ، وكانت تحقق في بيع قهوة « الموكسكي » ، وكان هو يصحبهــا . لم يكن يريد أن يكون تابعاً للزوج والأولاد ، وأن ينتظر ، وأن يستعطي . « سوف أفقده ! » وكانت قد أحست بتمزق يشبه في وضوحه جرحاً جسدياً. ومثل ذلك شعرت في الشتاء الماضي حين عادت من « شامونيكس » . كان لوسيان يقول : إن هذين الأسبوعين كانا تعذيباً ، وكان الأفضل إنهاء القضية . وهي التي ابتهلت ، فلم يتراجع هو ، وظلّ عشرة أيام من غير أن يكلمها . عشرة أيام جهنميــة . ولم يكن في ذلك ما يشبه الآلام النبيــلة التي يعبرون عنها في الموسيقى . بل كانت بالأحرى قذرة : الفم دبق ، ورغبــات بالتقيؤ . ولكن ، كان ثمة على الأقل ما يُؤسف عليه . شيء في العالم كان يساوي وزنــه من الشقاء . إنه ما يزال يعرف هــذه الحمّى ، واليأس ، والأمل ، إنه أكبر حظاً مني .

تساءلت لورانس وهي تحدج زوجهــا الذي كان يبسط مربّى البرتقال على قطعة بسكوت : « لماذا جان — شارل وليس لوسيان ؟ » إنها تعرف جيــداً أن لوسيان سينتهي بالانفصال عنها ، وسيحب امرأة غيرها . (لماذا أنا وليس امرأة أخرى ؟) وكانت تقرّ ذلك ، بل تتمناه في آخر المطاف . وإنمــا كانت تتساءل ببساطة : « لمــاذا جان — شارل ؟ » كانت الصغيرتان قــد ذهبتا الى فوفرول عشية الأمس بصحبة مارت ، فكانت الشقة صامتة . ولكن الجيرن ينتهزون يوم الأحــد ليدقوا على الحاجز بملء أذرعهم . وكان جان — شارل يضرب الطــاولة بعنف : « كفى هـــذا ! إني ذاهب لأحطم رؤوسهم ! »

وكان منذ عودته يبدو كبير القابلية للغضب ، يوبخ الطفلتين ، ويتحامل على غويا ويكرّر مآخذه بلا انقطاع . إن فرنيي عبقري ، متنبىء ، ولكنه لا يتزعزع حتى أن دوفرين على حق في آخر الأمر في انه لا يحقق شيئاً أبداً . ولم يكن الملتزم يقبل مشروعه كلية : وقد كان عليه أن يفكر في مساعديه قبل أن يترك العملية تسقط . فتلك ثروة تمرُّ من تحت أنفنا .

– سأحاول أن أدخل دار مونود .

– كنت تقول إنكم كنتم تشكلون فريقاً عظيماً ، وإنكم كنتم تعملون بحماس كبير .

– إن المرء لا يتغذى بالحماس . وأنا أسوى أكثر مما أكسب لدى فرنيي . أما عند مونود فسأكسب الضعف على الأقل .

– لاحظ أننا نعيش هكذا عيشة جيدة .

– وسنعيش على نحو أفضل .

كان جان – شارل مزمعاً على ترك فرنيي الذي كان معه لطيفاً جداً (فما عسانا كنا نصبح عند ولادة كاترين ، لولا السلفات التي قدّمها لنا ؟) ولكنه كان يحسُّ أولاً الحاجة الى تصفيته بالكلام .

– أفكار عظيمة هائلة يتحدث عنها الجميع ، وتمتلىء بها الصحف ، ذلك جميل جداً . . .

لماذا جان – شارل وليس لوسيان ، ما دام الفراغ نفسه ينحفر أحياناً حين تكون مع هذا ، وتكون مع ذاك . غير أن بينها وبين جان – شارل الأولاد ، والمستقبل والبيت العائلي وصلة صلبة ؛ أما بجانب لوسيان فإنها حين لا تستشعر شيئاً بعد تلفي نفسها أمام أجنبي . ولكن لنفرض أنه هو الذي كانت قد تزوجته ؟ إنه ما كان ليكون أفضل ولا أسوأ . فلماذا هذا الرجل وليس ذاك ؟ إن الأمر اغريب . إننا نجد أنفسنا مرتبطين مدى الحياة ، لأنه هو الذي التقيناه حين كنا في التاسعة عشرة . هي ليست آسفة على أنه كان جان – شارل ، بل على العكس . إنه شديد الحيوية ، ممتلىء بالأفكار ،

ورأسه يفيض بالمشاريـع ، وهو متحمّس لمـا يعمل ، لامع ، قريب الى قلوب الجميع ؛ وهو أمين وفيّ ، ذو جسم جميل، يحسن القيام بفعل الحب وغالبـاً ما يقوم به . إنه يعبد بيته وطفلتيه ولورانس . على نحو مختلف من لوسيان ، أقل رومنتيكية ولكنه صلب ومؤثر ؛ إنه بحاجة الى حضورها وإلى موافقتهـا ، وهو يكاد يُجن ، ما أن تبدو له حزينة أو حق قلقـة . الزوج المثالي . وهي سعيدة أن تكون قد تزوجته هو لا شخصاً آخر ؛ ولكن يدهشها مع ذلك أن يكون هذا على قدر ذلك من الأهمية ، وأن يكون اتفاقاً في الوقت نفسه ، من غير سبب خاص . (ولكن كل شيء كذلك) فهل نلتقي بقصص الأرواح الشقيقة إلا في الكتب ؟ وحق الطبيب العجوز الذي انتحر لموت زوجته : إن هذا لا يثبت أنهما كانا مخلوقين أحدهمـا للآخر . إن أبي يقول : « يجب أن نحب حباً » . فهل أحب جان – شارل ؟ وهل أحببت لوسيان حبـاً ؟ إن لديها الإحساس بأن الأشخاص متقابلون تجاهها فهم لا يسكنون فيها ؛ ما عدا بنتيها، ولكن لا بد أن يكون ذلك عضوياً .

– لن يكون مهندساً معمارياً كبيراً من لا يحسن التأقلم والانسجام .

وقطع حديث جان – شارل رنينُ جرس ، فمدّ لوحاً خشبياً قسم الغرفـة الى قسمين ، وأدخلت لورانس مونا الى أحد أركان المكتب .

– لطافـةٌ منك أن تأتي .

– لم يكن وارداً أن أتركك .

كانت مونا أنيقـة ، ترتدي بنطالاً وكنزة سميكة ، وكانت صبيانيـة في مظهرها ، انثوية ببسمتها وحركة عنقها الجميلة . وكانت ترفض عموماً أن ترفع بنُصرها خارج ساعات العمل: إننا مستَغَـلّون بما فيه الكفاية هكذا . ولكن كان ينبغي تسليم المشروع هذا المساء على أبعـد تقدير ، وكانت تعلم أن التصميم الذي عملته لم يكن ناجزاً . ونظرت فيما حولها :

– إنك تسكنين بيتاً جميلاً !

وفكّرت ثم أضافت :

– طبعاً ، لا بد لمن كان مثلكما انتما الاثنين أن يشكّل زوجاً جميلاً .

لم يكن في كلامها سخرية ولا عتاب : وإنما كانت تقارن . إنهـا تكسب حياتها على مهل، ولكن يبدو – وهي لا تتحدث كثيراً عن نفسها – أنها تخرج من وسطٍ متواضع جداً وانها تحمل على عاتقها أسرة برمّتها .

وجلست قرب لورانس وبسطت رسومها على طاولة العمل :

– رسمت عدة تصاميم ، مع بعض الاختلاف.

ولم يكن يسيراً الإعلان عن طراز جديد من نتاج شديـد الانتشار كعصير الطماطم . وكانت لورانس قد اقترحت على مونا استغـلال المفارقة « شمس – نضارة » . وكانت الصفحة المرسومة مرضيـة : شمس كبيرة في السماء بألوان فاقعة ، وقرية معلّقة ، وأشجار زيتون ؛ وكان في مقدمة الرسم علبـة النتاج وحبة طماطم . ولكن كان ينقص شيء ما : طعم الفاكهة . وقـد تناقشتا طويلاً ، وانتهتا الى أن من الواجب شقّ الفاكهة ووضع قطعة منها عارية .

وقالت لورانس :

– هنا الاختلاف الكبير : إن المرء ليرغب في عضّها الآن !

قالت مونا :

– نعم ، لقد فكرت انك ستكونين مسرورة . انظري اليها جميعاً . . .

وكان بين الورقة والأخرى تغيّرات طفيفة في اللون والشكل .

– إن الاختيار صعب .

ودخل جان – شارل الغرفـة ، فالتمعت أسنانه شديدة البياض فيما كان يشدُّ على يد مونا باندفاع :

– لقد حدّثتني عنـك لورانس مطولاً ! ورأيت كثـيراً من رسومك . وصورتك « ماريبيل » تسحرني . إنك ذات موهبة غنية .

قالت مونا :

– يحاول المرء أن يحمي نفسه .

وسألت لورانس :

– أيّ هذه الرسوم يعطيك الرغبة في أكل رُبّ الطماطم ؟

– إنها متشابهة جداً ، أليس كذلك ؟ والحق أنها جميلة جداً : لوحات صغيرة حقيقية .

ووضع جان – شارل يده على كتف لورانس :

– أنا ذاهب أنظّف السيارة . هل تكونين مستعدة في الثانية عشرة والنصف ؟ ينبغي ألاّ نتأخر عن ذلك إذا أردنا أن نصل « فوفرول » ساعة الغداء . . .

– سأكون مستعدة .

وخرج وهو يطلق بسمة كبيرة .

وسألت مونا :

– أنتما ذاهبان الى الريف ؟

– نعم ، إن الماما تملك بيتاً هناك ، ونحن نذهب إليه كل يوم أحد تقريباً . إنها استراحة . .

وكادت تقول آلياً : « لا بد منها » ، ولكنها استدركت نفسها . إنها تسمع صوت جيلبير و « استراحة لا بد منها » ونظرت الى وجه مونا ، وكانت منزعجة بغموض (لا انزعاج ، ولا تبكيت ضمير ، ولا تلمّظ شرس .

قالت مونا :

– هذا طريف . . .

– ماذا ؟

– طريف كم يشبه زوجك لوسيان .

– أنت تحلمين ! إن لوسيان وجان – شارل كالماء والنار .

– أما أنا فأراهما قطرتي ماء .

– لست أرى ذلك حقاً .

– إنهما مثالان للحركات الجميلة والأسنان البيضاء، يحسنان التحدث ويضمان « الأفتر – شايف » بعد أن يحلقا ذقنيهما .

– آه ! إذاً كنت تقصدين هذا .

– نعم أقصد هذا .

ثم قالت بجسم :

– وإذن ، فأي مشروع تفضلين ؟

وتفحصتها لورانس من جديـــد . إن لوسيان وجان – شارل يستعملان « الأفتر – شايف » ، حسناً . وصاحب مونا كيف تراه يكون ؟ إن بودها أن تدعوها الى الحديث ، ولكن مونا استعادت الهيئة المغلقـة التي تخيف لورانس . كيف تراها تقضي يوم الأحد ؟

– أعتقد أن هـذه الرسمة هي أفضلها . بسبب القرية : إنني أحب تدحرج البيوت . . .

قالت مونا :

– وأنا أيضاً ، إنني أفضلها .

وجمعت أوراقها :

– حسناً . إنني أنسحب .

– ألا تريدين أن تأخذي قـــدحاً ؟ من الخمر أم من الويسكي ؟ أو من عصير الطماطم ؟

وضحكتا .

– لا ، لست راغبة في شيء . ولكن أريني بيتك .

وانتقلت مونا من غرفة الى غرفة ، من غير أن تقول شيئاً . وكانت أحيـاناً تمسّ قماشة أثاث أو خشب طاولة . وفي زاوية الصالون الذي كان يغمره النور ، تداعت للسقوط على أريكة .

– إنني أفهم أن لا تفهموا شيئاً .

كانت مونا تبدو عادةً ودّية ، ولكن يبدو عليها أحياناً أنها تحتقر لورانس.

ولم تكن لورانس تحب أن تُحتقر بصورة عامة ، ومن قِبَل مونا بصورة خاصة . ونهضت مونا ، وفيما كانت تزرّر سترتها ، ألقت حولهـا نظرة أخيرة لم تعرف لورانس معناها تماماً : وعلى أي حال لم تكن نظرة حسد .

وصحبتها لورانس حتى المصعد وعادت الى طاولتها . وأدرجت في ظرفٍ التصميم المختار والنصّ الذي وضعته : وأحسّت بانزعـاج خفيف . صوت مونا المحتَقِر : أي تفوق تحسبه لنفسها ؟ إنها ليست شيوعية ، ولكن لا بد مع ذلك أنها تملك صوفية البروليتاريا ، كما يقول جان – شارل ؛ إن فيها شيئاً مـا متعصّباً ، وليست هي المرة الأولى التي تلاحظ فيهـا لورانس ذلك . (كان بابا يقول : « إذا كان ثمة ما أحتقره ، فهو التعصُّب ») يا للأسف ! من أجل هـذا يظل كل إنسان محجوزاً في دائرته الصغيرة . وقالت لورانس في أسف : لو أن كل إنسان يخفف ذلك بشيء من الإرادة الطيبـة ، فلن يكون من الصعب التفاهم .

فكرت لورانس : إن من المزعج ألا أتذكر أبداً أحلامي . أما جان – شارل فلديه كل صباح أحلام يرويها ، أحلام واضحة ، غريبة بعض الشيء كتلك التي يعرضونها في السينما أو يروونها في الكتب . أما أنا ، فلا شيء . إن كل مـا يحدث لي خلال هذه الكثافات الليلية هو حياة حقيقية تعنيني وتفلت مني . لو أنني كنت أعرفها ، لربما ساعدتني (في أي شيء ؟) إنهـا على أي حال تعرف لماذا تستيقظ في الصباح مبلبلة : دومينيك. دومينيك التي شقّت دربها في الحياة بضربات من فأس، ساحقةً و مُبعدة كل ما كان يُزعجها، وعاجزة فجأة متخبّطة في صخب وغضب . لقد رأت جيلبير « على صعيد الصداقة » ، ولم يقل لها اسم المرأة الأخرى . وقد سألتني بلهجة مرتابة :

– أهي موجودة حقاً ؟

– ولماذا تراه يريد أن يكذب عليك ؟

– إنه معقد الى حد بعيد !

وسألت جان – شارل :

– لو كنت مكاني ، أكنت تقول لها الحقيقة ؟

– لا بالتأكيد . إن من الأفضل ألا يتدخل الإنسان بقصص الآخرين .

وإذن ، فإن دومينيك تحتفظ بأمل غامض . أمل مترنح . لقد ظلت يوم الأحد في فوفرول منعزلة في غرفتها بحجة أنها تعاني صداعاً ، محطمة بغياب جيلبير ، مفكرة بأنه « لن يأتي بعد أبداً . » وعلى التلفون – إنها تتلفن لي كل يوم – تصفه لي بملامح كريهة جداً حتى ليأخذني العجب كيف استطاعت أصلاً أن تحبه : إنه متكبر ، نرجسي ، سادي ، أناني بشكل متوحش ، يضحي بالجميع من أجل راحته وأهوائه . وأحياناً أخرى تمتدح لي ذكاءه وقوة إرادته وبريق انتصاراته وتؤكد : « سوف يعود لي . » وتتردد في اختيار الطريقة التي ينبغي أن تتبعها : الرقة أم العنف ؟ ما الذي ستفعله قريباً يوم يعترف لها جيلبير بكل شيء ! أتنتحر أو تقتل ؟ إنني لا أستطيع أن أتصور شيئاً . وأنا لم أعرف دومينيك إلا منتصرة .

كانت لورانس تنظر في الكتب التي نصحها جان – شارل بقراءتها ، (كان يضحك : « آه ! لقد عزمت أخيراً ؟ هذا ما يسرني حقاً . ستدركين بأننا ، على أي حال ، نعيش في عصر عجيب عظيم » . وكان يبدو شاباً نضراً حين كانت تأخذه سوْرة من سوْرات الحماسة هذه) وتصفحتها ، ونظرت في خواتيمها ؛ إن هذه الخواتيم تقول الشيء نفسه الذي يقوله جان – شارل وجيلبير : كل شيء يجري خيراً من السابق ، وكل شيء سيجري أفضل فيما بعد. ولقد انطلقت بعض البلدان انطلاقاً سيئاً ، ولا سيما افريقيا السوداء ؛ وهذا النمو العددي في الصين وفي آسيا كلها يثير القلق ، ومع ذلك ، فبفضل البروتينيات المركبة ، ومنع الحمل ، والتسيير الآلي ، والطاقة النووية ، يمكن التأميل بأن حضارة الرخاء والفرص المريحة ستقوم حوالي ١٩٩٠ . ولن تشكل الأرض بعد إلا عالماً واحداً ربما تحدّث – بفضل الترجمات الآلية – لغة عالمية ، سيأكل الناس حتى الشبع ، ولن يخصصوا للعمل إلا وقتاً ضئيلاً ؛ ولن يعرفوا

بعد الألم ولا المرض . ستكون كاترين ما تزال شابة عام ١٩٩٠ . بيد أنها تود لو تكون مطمئنة اليوم على ما يجري حولها . فلا بـــد من كتب أخرى تقدم لي وجهات نظر أخرى . مـــا هي ؟ إن بروست لا يستطيع أن يساعدني . ولا فيتزجرالد . لقد تسمرت أمس أمام واجهة مكتبة كبيرة . « الجمهور والقوة » « باندونغ » ، « باتولوجية المشاريع » « المرأة وعـلم النفس التحليلي » ، « أميركا والأميركات » ، « من أجـــل نظرية عسكرية فرنسية » ، « طبقة عماليـــة جديدة » ، « مغامرة الفضاء » ، « المنطق والبنية » ، « ايران » ... بأيّهـــا أبدأ ؟ ولم أدخل المكتبة .

هل تطرح أسئلة ؟ ولكن على من ؟ على مونا ؟ إنها لا تحبّ الثرثرة . انهـــا تقوم بأكبر عمل ممكن في أقل وقت ممكن . وأنا أعرف مـــا الذي ستقوله إذا سألتها . إنهـــا ستصف الوضع العمالي الذي ليس هو ما ينبغي أن يكون ، والجميع هناك متفقون على ذلك ، بالرغم من أنهم بفضل المخصصات العائليـــة يملكون جميعهم تقريباً غسّالة وجهاز تلفزيون وحق سيارة . صحيح أن المساكن غير كافية ، ولكن الوضع يتغير : فيكفي أن نرى هذه الأبنية الجديدة وهذه الورشات والرافعـــات الصفر والحمر في سماء باريس . أمـــا القضايا الاجتماعية فالجميـــع يهتمّون بها اليوم . والحق أن المشكلة الوحيدة هي في الحقيقـــة : هل يُفعل أم لا كل ما يمكن فعله للحصول على المزيد من الراحة والعدل في الأرض ؟ إن مونا تعتقد أن لا . أما جان ـ شارل فيقول : « ليس هناك من يفعل « كل » ما يمكن فعله : ولكن ما يفعل الآن هائل . » وهو يعتقد أن مونا وأمثالهـــا يخطئون بدافع من نفاد الصبر ؛ وشأنهم في ذلك شأن لويز حين يُدهشها ان لا يكون الناس قد هبطوا الى القمر بعد . وقد قال لي أمس : « إن الاصطدامات البشرية التي تتأتى من التجمّعات ومن الآلية تدعو أحياناً الى الأسف . ولكن من ذا الذي يريد أن يوقف التقدّم ؟ »

وتناولت لورانس من ملف المجلات العددين الأخـــيرين من « الأكسبرس » و « كانديد » . كانت المجلات اليوميـــة والاسبوعية إجمالاً تعطي الحق لجان ـ

شارل . وهي تفتحها الآن بغير ما خوف . لا ، لا يحدث بعـــد ما هو مروع – إلا الفيتنام – ولكن ليس في فرنسا من يقرّ الاميركيين . وكانت مسرورة أنها هزمت هذا النوع من الخوف الذي كان يحكم عليهــا بالجهل (أكثر من نقص الوقت ، فإن الوقت يمكن ايجاده) كان يكفي في الحقيقة أن نأخذ عن الأشياء وجهة نظر موضوعية . ولكن الصعوبة هي عدم إمكان نقل وجهة النظر هــذه الى طفـــلة . وفي تلك اللحظة كانت كاترين تبدو هادئة . أما إذا اضطربت من جديد ، فلن استطيع أن أحدّثها أفضل من ذي قبل . . .

« أزمة بين الجزائر وفرنسا » . وقرأت لورانس نصف المقــال حين طرق الباب طرقتين جذلتين . انها مارت . وكانت لورانس قد طلبت منهـــا عشر مرات أن لا تأتي على غـــير موعد . ولكنهـــا تستجيب لدوافع خارقة : لقد أصبحت متسلطة منذ بدأت السماء تلهمها .

– هل أزعجك ؟

– قليلاً . ولكنك ما دمت هنا ، فابقي خمس دقائق .

– هل تعملين ؟

– نعم .

– إنك تعملين أكثر مما ينبغي .

ونظرت مارت الى اختها بهيئة متبصرة :

– إلا أن تكون لديك هموم . لم تكوني يوم الأحد مرحة .

– بلى .

– كفى ، كفى ! إن اختك الصغيرة تعرفك جيداً .

– أنت مخطئة .

لم تكن لدى لورانس أية رغبة في أن تكاشف مارت . ثم أن الكلمات ، لو فعلت ، ستكون على الفور أضخم مما ينبغي . فلو قالت : انني قلقـــة على أمي ، إن كاترين تطرح عليّ أسئلة ، إن جـان – شارل ذو مزاج كلبي ، إن لي علاقة تثقل علي ، فبالإمكان الظن بأن في رأسها كتلة كثيفـــة من المشاغل التي

تستغرقها كلياً . الحقيقة أن الأمر كان هنا من غير أن يكون هناك ، إنه في لون النهار . وهي تفكر فيه طوال الوقت ، وهي لا تفكر فيه أبداً .

قالت مارت :

– اسمعي ، إن هناك مسألة أريد أن أحدّثك فيها . كنت أريد أن أفعل ذلك يوم الأحد . ولكنك تخيفينني .

– أخيفك ؟

– نعم . تصوّري ذلك . وأنا أعرف انني سأثير غيظك . ولكن هـذا عندي سواء . إن كاترين ستبلغ الحادية عشرة عمّا قريب : وأعتقد أن عليك أن ترسليها الى التعليم الديني والقيام بالتناول .

– أية فكرة هذه ! لسنا مؤمنين لا جان – شارل ولا أنا .

– ولكنك مع ذلك قد عمّدتِها ؟

– بسبب إلحاح أمّ جان – شارل . أما وأنها قد ماتت الآن ...

– انك تتحملين مسؤولية خطيرة بحرمانك ابنتك من كل تعليم ديني . إننا نعيش في حضارة مسيحية . ومعظم الأطفال يقومون بالتناول . وسنأخذ عليك فيما بعد أنك قرّرت لها ، من غير أن تتركي لها حرية الاختيار .

– هذا رائع ! أن أتركها حرة هي أن أرسلها الى التعليم الديني !..

– نعم . ما دام هذا في فرنسا هو اليوم الموقف الطبيعي . انك تجعلين منها استثناء ، شخصاً منفياً .

– لا تلحّي في ذلك .

– بل اني ألحّ . انني أجد كاترين حزينة ، قلقـة . وهي تفكر أفكاراً غريبة . انني لم أحاول قط التأثير عليها ، ولكني أصغي اليها . إن من القسوة الشديدة بالنسبة لطفلة أن تواجه الموت والشر إذا لم تكن مؤمنـة بالرب . فإذا آمنت ساعدها ذلك .

– ما هي الأفكار التي حدثتك عنها !

– لا أذكر على الضبط .

وحدجت مارت اختها :

– ألم تلاحظي شيئاً ؟

– بلى ، بكل تأكيد . إن كاترين تطرح أسئلة كثيرة . وأنا لا أريد أن أجيب عليها بالأكاذيب .

– إنك على جانب من التعالي والتكبر إذ تقررين انها أكاذيب .

– ولستِ دوني أنت التي تقررين انها حقائق .

ولمست لورانس ذراع أختها وقالت :

– لا نتخاصم . إنها ابنتي ، وأنا أربّيها كما أريد . ويبقى لك أنت أن تصلـّي من أجلها .

– لن أقصّر في ذلك .

ما أعند مارت ! صحيح أنه ليس من السهل تربية الأولاد تربية لادينية ، في هذا العالم الذي يكتسحه الدين . ولكن كاترين لا تجد ما يغريها من هذا الجانب . أما لويز فإن بريق الاحتفالات يجتذبها . لا شك في أنها ستطلب الذهاب في عيد الميلاد لرؤية المزاود ... لقد روت لهما لورانس ، منذ طفولتهما الأولى، التوراة والانجيل وفي الوقت نفسه قصص الميتولوجيا اليونانية اللاتينية وحياة بوذا . وأوضحت لهما أن تلك هي أساطير جميلة حوّل أحداث وبشر حقيقيين . وقد ساعدها أبوها في عرض هذه القصص . كما روى لهما جان – شارل بداءات الكون والكواكب المذنّبة ومادة الحياة : فوجدتا هذه الحكاية رائعة . وقد تحمست لويز حماساً شديداً لكتاب في علم الفلك بسيط جداً ، يحتوي صوراً جميلة . جهد طويل ، معد ، ذكي ، وفرته مارت على نفسها إذ عهدت بأولادها الى رهبان ، وهي مستعدة أن تهدمه بنقفة واحدة ، في ثقة بالنفس لا تُصدق .

وحين رافقت لورانس أختها بعد ذلك بقليل الى الباب سألتها قائلة :

– ألا تذكرين حقاً ما هي الأفكار التي لفتت انتباهك لدى كاترين ؟

فقالت مارت بلهجة متأملة :

– لا . إنه بالأحرى نوع من الحدس جاءني فيما وراء الكلمات .

وأغلقت لورانس الباب خلفها بانزعاج . لقد كانت كاترين منذ حين ، إذ عادت من الليسيه ، تبدو مرحة . وهي تنتظر بريجيت لتقوم معها بالترجمة اللاتينية . فعمَّ تراهما ستتحدثان ؟ عم تتحدثان ؟ حين تسأل لورانس كاترين ، فإنها تتجنب الإجابة . أنا لا أعتقد أنها تحترس مني : الأصح أن ما يعوزنا هو اللغة المشتركة . لقد تركتها حرة جداً فيما كنت أعاملها كطفلة ، ولم أكن أحاول أن أتحدث معها ؛ ولهذا أعتقد أن الكلام يخيفها ، على الأقل في حضوري. إنني لا أوفق الى إيجاد وسيلة الاتصال . « أزمة بين الجزائر وفرنسا » أود رغم كل شيء أن أنهي قراءة هذا الموضوع .

– صباح الخير يا سيدتي .

وقدَّمت بريجيت الى لورانس باقة صغيرة من الأقحوان .

– شكراً ، إنها جميلة جداً .

– أترين : لقد رفوت الفتق في تنورتي .

– آه نعم ؛ إنها هكذا أفضل جداً .

حين التقت بها في فناء « متحف الإنسان » كان الدبوس ما يزال مزروعاً في تنورة بريجيت . ولم تقل لورانس شيئاً ، ولكن الصغيرة فاجأت نظرها فاحمرت أذناها .

– أوه ! لقد نسيت مرة أخرى ...

– حاولي أن تفكري في ذلك .

– أعدك أن أرفوها هذا المساء .

وطافت لورانس بهن المتحف ؛ وكانت لويز تعاني بعض الضجر ؛ أما الأخريان فكانتا تركضان في كل مكان وتعبران عن دهشتهما بصرخات صغيرة . وفي المساء ، قالت بريجيت لكاترين :

– أنت محظوظة أن تكون لك ماما لطيفة الى هذا الحد !

ولم تكن ثمة حاجة لتكون لورانس ساحرة حتى تستشف خلف حركاتها

الشبيهة بحركات امرأة صغيرة قلق الفتاة اليتيمة .

– هل ستعملان في ترجمة نصّ لاتيني ؟

– نعم .

– ثم تثرثران كامرأتين فضوليتين .

وتردّدت لورانس :

– اسمعي يا بريجيت : لا تروي لكاترين أشياء حزينة .

فاصطبغ الوجه كله وحتى العنق بالاحمرار .

– ماذا قلت وكان ينبغي ألا أقوله ؟

– لا شيء خاصاً .

وابتسمت لورانس على نحو مطمئن :

– كل ما هنالك ان كاترين ما تزال صغيرة جداً. إنها غالباً ما تبكي في الليل، وأشياء كثيرة تخيفها .

– آه ! فهمت !

وبدا على بريجيت أنها أكثر ارتباطاً منها انزعاجاً .

– ولكن لنفرض أنها طرحت عليّ أسئلة ، فهل أقول لها إنك تمنعينني من الإجابة ؟

وكانت لورانس هي التي اضطربت الآن: إنني أحسّني مخطئة بأن أخطّئها ، بينما في الحقيقة . . .

– أيّ نوع من الأسئلة !

– لا أدري . حول ما شاهدته في التلفزيون .

آه ! نعم ؛ هناك هذا أيضاً : التلفزيون . إن جان – شارل يحلم دائماً بما يستطيع أن يكونه ، ولكنه يرثي لما هو حالياً ؛ وهو لا يشاهد إلا الأخبار المصوّرة وبرنامج « خمسة أعمدة في الصفحة الأولى » الذي تشاهده لورانس كذلك ، بين الحين والحين ؛ وتعرض فيه أحياناً مشاهد غير محتملة ؛ والصور بالنسبة لطفلة هي أشدّ تأثيراً من الكلمات .

– ما الذي رأيته في التلفزيون في هذه الأيام الأخيرة ؟

– اوه ! أشياء كثيرة .

– أشياء حزينة ؟

فنظرت بريجيت الى لورانس في عينيها :

– هناك أشياء كثيرة أجدها حزينة ، الا ترين أنت ذلك ؟

– بلى ، بكل تأكيد .

ماذا عرضوا في هذه الأيام الأخيرة ؟ كان عليّ ان أنظر . المجاعة في الهند ؟ التقتيل في الفيتنام ؟ مشادّات عنصرية في الولايات المتحدة الأميركية ؟

واستطردت لورانس :

– ولكنني لم أشاهد البرامج الأخيرة . ما الذي استلفت نظرك ؟

فقالت بريجيت في اندفاع :

– الفتيات اللواتي يضعن قِطع الجـَزَر على شِبّاك صيد السمك .

– كيف ذلك ؟

– نعم . لقد كنّ يروين أنهنّ يقضين النهار كله وهنّ يضعن قطع الجزر على شباك صيد السمك . وهنّ لسن أكبر سنّاً مني . انني أفضّل الموت على أن أعيش هكذا .

– لا يبدو ان الأمر مشابه تماماً بالنسبة اليهن .

– لماذا ؟

– لقد رُبّين على نحوٍ آخر .

قالت بريجيت :

– لم يكن يبدو عليهن انهن مسرورات .

مِهَنٌ بليدة لن تلبث أن تختفي مع الأعمال الآلية ؛ وبالانتظار ، طبعاً ... يطول الصمت .

قالت لورانس :

– حسناً . إذهبا لإنجاز الترجمة اللاتينية . وشكراً للزهور .

فلم تتحرك بريجيت .

– يجب عليّ ألاّ أحدّث كاترين بهذا ؟

– بأيّ شيء ؟

– هؤلاء الفتيات الصغيرات ؟

قالت لورانس :

– ولكن بلى . وانما حين يبدو لك شيءٌ ما فظيعاً حقّاً ، فمن الأفضل أن تحتفظي به لنفسك . انني أخاف أن تعاني كاترين من الكوابيس .

وكانت بريجيت تلوي نطاقها ؛ كانت هيئة الارتباك والحيرة بادية عليها ، هي البسيطة الصريحة عادة . وفكرت لورانس : « لقد أسأت التصرّف معها » ؛ ولم تكن راضية عن نفسها ؛ ولكن كيف كان ينبغي لها أن تتأتّى الأمر ؟ وانتهت إلى القول في شيء من الارتباك :

– على أي حال ، أترك لك الأمر . انتبهي قليلاً ، هذا كل شيء .

أتراني أصبحت ضعيفة الإحساس ، أم إن بريجيت هي القابلة للجَرْح بصورة خاصّة ؟

هكذا تساءلت لورانس حين انغلق البـــاب . « طوال النهار ، قِطَـع من الجزر » لا شك في أن هؤلاء الفتيات انما يمتهنّ مثل هذه المهنة لأنهنّ غير قادرات على امتهان عمل أكثر أهمية . ولكن ذلك لا يجعل الأشياء أطرف في نظرهنّ . هي ذي ايضاً بعض هذه « الاصطدامات البشرية » التي يؤسف لها . أأكون على صواب أم على خطأ ألاّ أهتمّ بها إلا قليلاً ؟

وأنهت لورانس قراءة المقال : إنها لا تحبّ ان يظلّ ما تبدأ بقراءته غـــير منتهٍ . ثم استغرقت في عملها : وضع سناريو لنتاج شامبوان . وأخذت تدخّن سيكارة إثر سيكارة : حتى الأشياء البليدة تصبح جديرة بالاهتمام اذا حاولنا أن نتقن صنعها . وخلت علبة السكاير . وأصبح الوقت متأخراً . وجاءت ضجّة من داخل البيت . ألا تزال بريجيت هنا ؟ ولويز ، مـــاذا تفعل ؟ وعبرت لورانس الممرّ . كانت لويز تبكي في غرفتها ، وكان في صوت كاترين دموع .

وابتهلت تقول :

– لا تبكي . أعدك ألا" أحب" بريجيت أكثر منك .

كفى ! لماذا ينبغي دائماً أن تباع بهجة البعض بدموع الآخرين ؟

– لولو ، أنت التي احبّك أكثر . أما بريجيت ، فأهتمّ بالحديث معها ؛ ولكنك أنتِ أختي الصغيرة .

– صحيح ؟ صحيح حقاً ؟

وابتعدت لورانس بغير ما ضجة . يا لهموم الطفولة التي تمتزج فيها القبلات بالدموع ! ليس ثمة من أهمية لأن تدرس كاترين أقل" من المعتاد ؛ إن حساسيتها تنضج ؛ إنها تتعلم أشياء لا تُلقن في الصف" : التعاطف ، التعزية ، الأخذ والعطاء ، إدراك فروقٍ على الوجوه وفي الصوت كانت تفوتها .

وأحسّت لورانس في قلبها ، لمدة لحظة ، حرارة ، حرارة ثمينة ، نادرة . ماذا ينبغي أن تفعل حتى لا تُحرم كاترين ، فيما بعد ، من هذه الحرارة أبداً ؟

الفصل الثالث

انتهزت لورانس فرصة غيـاب الصغيرتين لترّتب غرفتيها . ربّمـا كانت بريجيت لم تتحدث عن البرنامج التلفزيوني الذي لفت انتباههـا ؛ ومهما يكن من أمر ، فان كاترين لم تنفعل لذلـك قط ؛ لقد كانت جذلة هذا الصباح اذ أخذت مكانها مع لويز في سيارة جدّهما : وكان يأخذهما في عطلة نهاية الاسبوع لمشاهدة قصور الـلوار . ولورانس هي التي تركت نفسها - بشكل أخرق في نهايـة المطاف - تنزعج من هذه الحكاية . وقد بدت لها فكرة مصيبة باهتة ويوميـة أشقّ على الهضم من الكوارث الكبيرة التي هي استثنائية على أيّ حال . وكانت تريد أن تعرف كيف كان الآخرون يتدبّرون الأمر .

وقد سألت لوسيان في ذلـك يوم الاثنين ، وهي تتناول الطعام معـه . (مزعجة ، هذه اللقاءات . إنه عاتبٌ عليّ ، ولكنه متشبّث . لقـد قالت دومينيك ، منـذ عشرة أعوام : « الرجال ؟ إنني أنفر منهم ! » فان نأتي متأخرات ، أو نلغي الموعد ، أو نعطي من أنفسنا أقلّ فأقلّ : إن الأمر ينتهي بهم الى الإشمئزاز من أنفسهم . أما انا ، فلا أعرف أن أتصرّف على هذا النحو . وينبغي أن أعزم ذات يوم على القطيعة الدامية) إنه لا يهتمّ أبداً بهذه المشكلات . ولكنه مع ذلك أجابني . صحيح انه بشعٌ أن يُحكم على فتاة في السادسة عشرة بعمل بليد ، وأن يكون المستقبل أمامها مسدوداً ؛ ولكن الحقيقة أن الحيـاة هي دائمة بشعة ، إن لم يكن لهذا السبب ، فلذاك . أنا أملك بعض المال ، وأربح منه الكثير ، فماذا يجديني ذلك ما دمت لا تحبينني؟ من هو السعيد ؟ هل تعرفين أشخاصاً سعداء ؟ إنك تتفادين من المزعجات حين تغلقين قلبك بالقفل والمفتاح : وأنا لا أسمّي هذا سعادة . زوجك ؟ ربّما ؛ ولكن إذا عرف الحقيقة فان هـذا

لن يسرّه . إن حياة كل فرد تساوي حياة الآخرين بفرقٍ بسيط . كنت تقولين أنت نفسك : إن مما يثير الرثاء أن نرى دوافع النـــاس وخيالاتهم المسكينة ، وسراباتهم . إنهم لا يملكون شيئاً صلبـاً يضعونه تحت أسنانهم ، شيئاً يحرصون عليه حقاً ؛ ولو كانوا مسرورين لما استهلكوا هذا القدر من المهدّئات . هنـــاك شقاء الفقراء ، ولكن هنـــاك أيضاً شقاء الأغنيـــاء : وينبغي أن تقرأي فيتزجرالد ، فهو يتحدث في ذلك حديثاً طريفـــاً جيداً . وفكرت لورانس ، أجل ، إن في ذلك جانباً من الحقّ . إن جان – شارل غالباً ما يكون مرحاً ، ولكنه ليس سعيداً حقاً : فهو سريع الانزعاج أكثر مما ينبغي بسبب هذا الأمر أو ذاك . وأمّي ، أيّ جحيم ينتظرها ، بالرغم من شقّتها الجميلة وأناقتها وبيتها الريفيّ ! وأنا ؟ لست أدري . ينقصني شيء يملكـه الآخرون ... إلاّ أن ... إلاّ أن يكونوا قد فقدوه . ولعلّ جيزيل دوفرين حين تتنهّد : « هذا رائع »، وحين تبسط مارت بسمة مشعّة على فمها الضخم لا تُحسّان بأكثر ممـــا أحسّ أنا . وبابا وحده ...

وقد أخذته لورانس لهـا وحدها ، يوم الأربعاء المـــاضي ، بعد أن نامت الصغيرتان : وكان جان – شارل يتناول العشاء في الخارج مع مهندسين شبّان (« ليس بعدُ من خطّ عمودي ، ولا خطّ أفقي ، إن الهندسة المعمارية ستكون مائلة أو لا تكون » . كان يجد هذا مضحكاً بعض الشيء ، ولكنّ لهم وجهات نظر هامّة ، هذا ما رواه لها حين عاد إلى المنزل .) ومرة أخرى ، حاولت أن ترتّب ما أجابها به، في أوقات مختلفة . إن الانسان في جميع البلدان، اشتراكية كانت أم رأسمالية ، مسحوق بالتكنيك ، أسيرٌ لعمله، مقيَّد ، متبلّد . والشرّ كلّه يأتي من أنه أكثرَ حاجاتِه بينما كان عليه أن يضبطها ؛ وبدلاً من أن يسعى إلى رخاء ليس له من وجود ، وربما لن يوجد أبداً ، كان ينبغي له أن يكتفي بحدّ أدنى حيويّ ، كما لا تزال تفعل بعض الطوائف الفقيرة جداً – في سردينيا واليونان مثلاً – التي لم ينفذُ التكنيك فيها ولم يفسدها المال . هناك يعرف الناس سعادة زاهدة لأن بعض القيم محافَظٌ عليها ، قيمٌ إنسانية حقاً تتعلق بالكرامة

والأخوة والكرم وتمنح الحياة مذاقاً فريداً . وما دمنا ماضين في خلق حاجات جديدة ، فاننا نضاعف ألوان الحرمان . ومتى بدأ السقوط ؟ يوم فضّلنا العلم على الحكمة ، والنفع على الجمال . بدأ مع النهضة والعقلانية والرأسمالية والعلمية . حسناً ، أما الآن وقد بلغنا هذا ، فما العمل ؟ ينبغي أن نحاول بعث الحكمة فينا ، وحولنا ، وبعث حسّ الجمال . وثورة أخلاقية فقط ، وليس سياسية ولا اجتماعية ولا تكنيكية ، هي التي سترد الانسان إلى حقيقته المفقودة . ويمكننا على الأقل أن نقوم بهذا التغيير لحساب تلك الثورة : وإذ ذاك يصبح الفرح في متناولنا ، بالرغم من عالم العبث هذا ومن الفوضى التي تحاصرنا .

والحق أن ما يقوله لوسيان وما يقوله أبي ممتزج . إن الجميع تعساء ، والجميع يستطيعون أن يجدوا السعادة : معادلتان . هل أستطيع أن أشرح لكاترين : إن الناس ليسوا تعساء الى هذا الحدّ ما داموا متمسّكين بالحياة ؟ وتردّدت لورانس : إن هذا يعني أن الأشقياء ليسوا أشقياء . فهل هذا صحيح ؟ صوت دومينيك المقطّع بالبكاء والصراخ ؛ إنها تستفظع حياتها ، ولكنها لا تريد إطلاقاً أن تموت : هذا هو الشقاء . ثم إن هناك هذه الفجوة ، هذا الفراغ الذي يثلّج الدم ، والذي هو أسوأ من الموت بالرغم من انه مفضّل على الموت ما دام المرء لا ينتحر : لقد عرفتُ ذلك منذ خمسة أعوام وما زلت أحتفظ منه بذكرى مرعبة . وهناك واقعة أن ثمة أشخاصاً ينتحرون — لقد طلب موزاً ومنشفة — لأنّ هناك شيئاً أسوأ من الموت. هذا ما يحمل البرد يسري فيعظامنا حين نقرأ قصة انتحارٍ ما : ليست هي الجثة الضعيفة المعلّقة بحديد النافذة ، بل ما حدث في هذا القلب قبل ذلك تماماً .

وقالت لورانس في نفسها ، لا ، إن ما أجابني به أبي لا يصلح إلاّ له ؛ لقد احتمل دائماً كل شيء في صلابة : أوجاعه في المجرى البولي ، وعمليته ، وسنواته الأربع في الأسر ، وهجر الماما إيّاه، بالرغم من انه عانى من ذلك حزناً شديداً. وهو وحده القادر على أن يجد الفرحفي هذه الحياة المنعزلة ، القاسية التي اختارها لنفسه . أودّ لو أعرف سرّه . ولعلّني لو كنت أراه أكثر من ذلك ، وأطول

من ذلك . . .

وسألها جان – شارل :

– هل أنت مستعدّة ؟

وهبطا إلى المرأب ؛ وفتح جان – شارل باب السيارة ، فقالت لورانس :

– دعني أقود . إن أعصابك ثائرة أكثر مما ينبغي .

فابتسم بمزاج طيّب :

– كما تريدين .

وجلس في السيارة إلى جانبها . لا بدّ أن محادثته مع فرنبي كانت مزعجة ؛ إنه لا يتكلّم عنها، ولكنه كان يبدو شرساً، وكان يقود قيادة خطرة، بسرعة بالغة ، بضربات فرملةٍ قاسية وغاضبة . وقد كادت الصحف أمس الأول أن تنشر نبأ اصطدام جديد بين سائقي السيارات حدث فيه تحطّم رأس !

وفي دار بوبلانف ، تحدّث لوسيان منذ أيام حديثاً لامعاً عن بسيكولوجية الرجل وهو يقود : كبت ، تعويض ، قوة وعزلة . (إنه هو نفسه يقود جيداً جداً ولكن بسرعة مجنونة) فقاطعته مونا :

– أنا أريد أن أوضّح لماذا يصبح جميع هؤلاء السادة المهذّبين وحوشاً حين يجلسون وراء المقود .

– لماذا ؟

– لأنهم وحوش .

فهزّ لوسيان كتفيه . ما الذي كانت تقصده تماماً ؟

وقال جان – شارل بصوت مرح :

– حين أعود يوم الاثنين ، سأتعاقد مع « مونود » .

– هل أنت مسرور ؟

– جداً . سأقضي يوم الأحد في النوم وفي لعب الطابة ، ويوم الاثنين انطلق بقدم ثابتة .

وخرجت السيارة من النـَفـَق ، فضاعفت لورانس السرعـــة ، وعيناهـــا

مسمّرتان في المرآة العاكسة . وكان عليهــا أن تتجاوز ، ثم تتراجع ، وتتجاوز وتتجاوز ، وتتراجع .

مساء السبت : إن باريس تفرغ . إنها تحب أن تسوق السيارة ، وليس لدى جان – شارل نقيصة كثيرٍ من الأزواج : فمهما كان رأيــه ، فهو لا يسمح لنفسه بأية ملاحظة . وتبتسم لورانس . ليس لديه كثير من النقائص ، إجمالاً ، وحين تجري بهــما السيارة ، وهما جنباً إلى جنب ، تتوهّم دائماً – بالرغم من أنهــا لا تنخدع – بأنهما « مخلوقان أحدهما للآخر » . وفكـّرت في تصميم : « سأتحدّث إلى لوسيان هذا الاسبوع » وكان قد قال لها مرة أخرى أمس ، في عتــاب : « أنت لا تحبّين أحداً ! » هل هـــذا صحيح ؟ لا . إنني أحبّه كثيراً . صحيح انني سأقطع صلتي به ، ولكنني أحبّه كثيراً . أحبُّ الناس كلّهم كثيراً ، مــا عدا جيلبير .

وتركت الاوتوستراد ، ودلفت الى طريق منعزلة صغيرة . سيكون جيلبير في فوفرول . لقد تلفنت دومينيك بلهجة منتصرة : « سيكون جيلبير هنا . » لماذا تراه قادم ؟ ألعلّه يلعب ورقة الصداقة : إن ذلك لن يجديه نفعاً يوم تنفجر الحقيقة . أم هو قـــادم يقول كلّ شيء ؟ وُترّطب يدا لورانس المقود . إن دومينيك لا تصمد منذ شهر إلاّ لأنها تحتفظ ببعض الأمل .

– انني أتساءل لماذا قبل جيلبير أن يأتي .

– ربما يكون قد عدل عن مشروعه في الزواج .

– أشكُّ في ذلك .

كان الجو رطباً رمادياً ، وكانت الأزهار ميتة ؛ ولكن النوافذ كانت تلتمع في الليل ، ونارٌ خشبية تشعّ في قاعة الجلوس ؛ كان المدعوون قليلين ، ولكنهم مختارون : دوفرين وزوجته ، جيلبير ، تيريون وزوجته ؛ كانت لورانس قـــد عرفته وهي صغيرة ، وكان زميلاً لأبيها ، وقد أصبح أشهر محامٍ في فرنسا . ولم تكن مارت وهوبــير مدعوين . انهــما لا يظهران بمظهرٍ جيّد ، ابتسامات ، مصافحات . ويقبّل جيلبير اليد التي كانت لورانس قد رفضت مصافحته بهــا ،

منذ شهر . وكانت نظرته مليئة بالمعاني حين سأل :
– أتريدين أن تشربي شيئاً ؟
قالت دومينيك :
– عمّا قليل .
وأمسكت لورانس من كتفها وهي تقول :
– إصعدي أوّلاً فرّقي شعرك ، فقد فسدت تسريحتك .
وفي الغرفة ، ابتسمت لها :
– ليست تسريحتك فاسدة على الاطلاق . وانما كنت اريد التحدث اليك .
– ما الذي تشكينه ؟
– أيّ تشاؤم !
والتمعت عينا دومينيك . وكانت آنق قليلاً مما ينبغي بقميصها الذي يعود طرازه الى اول القرن وتنورتها الطويـلة (مَنْ تراها تقلّد ؟) وقالت بصوت مستثار :
– تصوّري اني اكتشفت السرّ !
– حقّاً ؟
لماذا تبدو دومينيك بهذه الهيئة الخبيثة ، إن كانت تعرف ؟
– استعدّي للمفاجأة ...
وانتظرت قليلاً :
– لقد عاد جيلبير الى غرامياته القديمة : لوسيل دوسان – شامون .
– ما الذي يجعلك تظنّين ذلك؟
– آه ، لقد أخبروني . إنه طوال الوقت محشور عندها . إنه يقضي عطـلة نهاية الاسبوع في « القصر » . هذا طريف ، أليس كذلك ؟ بعد كل ما قاله لي عنها ! إنني أتساءل كيف وقعت في الفخّ . إنها أقوى مما كنت أظنّ .
وكانت لورانس صامتة . إنها تحتقر هذا التعالي الظالم يتظاهر به من يعـلم على من لا يعلم . هل تطلعها على الحقيقة ؟ ليس اليوم ، مع جميع هؤلاء المدعوين

في البيت .

– ربما لم تكن لوسيل ، بل احدى صديقاتها .

– كفى كفى ! انها لن تشجّع غراماً لجيلبير مع امرأة اخرى . انني افهم لماذا أخفى عني اسمها : لقد خشي ان أسخر به ! والواقع اني لا أكاد أفهم هذه الهوسة ؛ ولكنها على اي حال لا يمكن ان تدوم. واذا كان جيلبير قد تركها منذ ان عرفني ، فلأن لديه اسباباً وجيهة ، تظلّ الآن قائمة . وسوف يعود اليّ .

ولم تقل لورانس شيئاً . واستطال الصمت . ولا بد ان دومينيك قد عجبت لذلك ؛ ولكن لا . فهي قد تعودت ان تطرح الاسئلة وتجيب عليها ... وقد استطردت بصوت حالم :

– يغريني جداً ان ارسل الى لوسيل رسالة اصف لها فيها بالتفصيل تركيبه الجسميّ واهواءه .

فانتفضت لورانس :

– لن تفعلي ذلك .

– بل سيكون هذا طريفاً . تصوّري هيئة لوسيل ! وهيئة جيلبير !

– لا ، سيحقد علي لذلك حتى الموت . إن خطتي هي على العكس ان اكون لطيفة جداً : ان اربح ما خسرته . إنني اعوّل كثيراً على رحلتنا الى لبنان .

– هل تظنين ان هذه الرحلة ستتم ؟

– بكل تأكيد !

وارتفع صوت دومينيك :

– لقد وعدني منذ اشهر بقضاء عيد الميلاد هذا في بعلبك . ان الجميع يعرفون ذلك . وهو لا يستطيع الآن ان يتهرب .

– ولكن الاخرى ستعارض ذلك .

– سأدعوه الى الاختيار : اذا لم يأتِ الى لبنان معي ، فلن اراه بعد ابداً .

– انه لن يخضع للتهديد .

– ليست لديه رغبة في ان يفقدني . وهذه الحكاية مع لوسيل ليست جدية .
– لماذا اذن حدّثك عنها؟ .
– بدافع لا يخلو من السادية : ثم إنه كان بحاجة الى وقته ؛ ولا سيا الى عطلة نهاية الاسبوع . ولكنك ترين : لم يكن لي الا ان الحّ قليلا حتى يأتي .
قالت لورانس :
- اذن خبّريه .
ربما كان هذا حلا . إن دومينيك ستحصل على رضى التفكير بانهـا هي التي قطعت الصلة . وفيا بعد ، حين تطـّلع على الحقيقة ، يكون اقسى ما فيهـا قد مرّ .
كانت غرفة الجلوس ملأى بالضحك وبالأصوات المرتفعة . وكانوا يشربون الخمر والبوربون والمـارتيني . وقدّم جان – شارل الى لورانس قدحاً من عصير الأناناس :
– ليس هناك ما هو مزعج ؟
– لا ، كما أنه ليس هناك ما هو حسن . انظر اليّ .
كانت دومينيك قد وضعت يدها على ذراع جيلبير في حركة امتلاك .
– حين أفكر بانك لم تأت منذ ثلاثة أسابيع ! إنك تعمل أكثر مما ينبغي . ينبغي على المرء أن يعرف كيف يرتاح .
فقال بصوت محايد :
– أعرف هذا جيداً .
– ولكن لا . ليس هناك ما يريح حقاً إلا الريف .
وبسمت له بتدلل لا يخلو من مكر . وكان هـذا جديداً عندها ولا يناسبها على الإطلاق . وكانت تتكلم بصوت مرتفع جداً . وقد أضافت تقول :
– أو الرحلات .
ثم التفتت الى تيريون ، ويدها لا تزال متشبثة بذراع جيلبير :
– سوف نقضي عيد الميلاد في لبنان .

– فكرة رائعة . ويبدو أن ذلك مدهش .

– نعم . ولدي فضول بان احضر عيد الميلاد في بـــلد حارّ . ونحن نتصور دائماً عيد الميلاد تحت الثلوج ...

فلم يجب جيلبير بشيء . وكانت دومينيك متوترة جداً حتى أن كلمة كانت تكفي لجعلها تنفجر . ولا بد أنه كان يستشعر ذلك .

وقالت السيدة تيريون بصوتها المغني :

– لقــد خطرت لصديقنا لوزارش فكرة لطيفة . سهرة عيد الميـــلاد في طائرة . إنه يصطحب خمسة وعشرين مدعواً : ونحن لا ندري إن كنا سنهبط في لندن أو روما أو أمستردام أو في مكان آخر . وبالطبع سيكون قــد حجز طاولات في أجمل مطعم في المدينة .

قالت دومينيك :

– هذا مسلٍّ .

فقال جيلبير :

– إن الناس عموماً ضعيفو الخيال حين تكون القضية البحث عن وسائل التسلية .

وهذه احدى تلك الكلمات التي فات لورانس معناها . فأحياناً يثير اهتمامها فيلم ما أو يضحكها : أما أن يسليها ... ترى هل يتسلى جيلبير ؟ وهـــل من المسلي ركوب طائرة من غير معرفــة وجهتها ؟ هذا الشك الذي جاءها منـــذ أيام ... ربما كان قائماً على أساس .

وذهبت تجلس مــع جان – شارل ودوفرين وزوجته في زاوية الموقـــد .

وقال جان – شارل :

– من المؤسف أن لا يتمكن الانسان في البنايات الحديثة من تأمـــين ترف مدخنة .

وكان ينظر الى اللهب الذي كان نوره يتراقص على وجهه . وقد نزع سترته من جلد الغزال ، وفتح ياقــة قميصه الأميركي فبدا أصغر سناً وأكثر راحـــة من المعتاد . (وكذلك دوفرين في ثوبه من المخمـــل المضلّع : أتكون القضية قضية

ثياب وحسب ؟) .

وقال جان ـ شارل :

ـ لقد نسيت أن أروي لك حكاية ستفتن اباك . إن غولد ووتر يحب نيران الخشب حباً شديداً حتى انه يبرّد في الصيف بيته بواسطة تكييف الهواء ويشعل نيراناً كبيرة .

فضحكت لورانس :

ـ نعم ، إن بابا سيحب هذا .

وكان على طاولة بجانبهـــا مجلات ـ رياليتيه ـ الأكسبرس ـ كانديد ، فوتر جـاردين ـ وبعض الكتب : الرواية الحائزة على جائزة غونغور والرواية الحائزة على جائزة رونودو . وكانت ثمة اسطوانات منتثرة على الديوان بالرغم من أن دومينيك لا تستمع أبداً الى الموسيقى .

وأدارت لورانس من جديد عينيها نحوها . كانت تتكلم باسمة ، لامباليـة، وهي تأتي بيديها كثيراً من الحركات .

ـ أما أنا فأفضل أن أتناول العشاء عند مكسيم فأنا متيقنـــة على الأقـل بان الطاهي لم يبصق في الصحون ، ولن تكون ركبتاي ملتصقتين بركبتي السيد الجالس على الطاولة المجاورة ، أنا أعرف ان في المطاعم الصغيرة الآن نزعـة رياء (سنوبيسم) ولكن ذلك ليس أقل غلاء ، وثمة رائحة شحم يحترق ، ولا يمكن تحريك البنصر إلا ويصطدم باحد ما .

ـ ألا تعرفين مطعم « شيجرتروت » ؟

ـ بلى . ولكني أفضل « لاتور درجان » بالسعر نفسه .

كانت تبدو على غاية الرضى والراحة . لماذا ترى جيلبير قد جاء ؟ وسمعت لورانس ضحكة جان ـ شارل، وضحكة دوفرين وزوجته . وقال جان ـ شارل :

ـ لا ، فكروا جدياً ، ماذا نصبح نحن المهندسين المعماريين المساكين ، بـين المتعهدين والمصمّمين والمديرين والمهندسين ؟

وتنهّد دوفرين :

– آه ؟ المصمّمون !

وألهب جان – شارل النسار ، فالتمعت عيناه : أكان في طفولته نيران توقد من الخشب ؟ مهما يكن من أمر ،فإن على وجهه هيئة طفولة وان لورانس لتحس شيئاً ما يذوب فيها : الحنان ؛ ليتها كانت تستطيع أن تجده من جديد ، والى الأبد . .

وانتزعها صوت دومينيك من حلمها .

– كنت أظن أنا أيضاً أن ذلك لن يكون طريفاً . وقد بدأ ذلك بداءة سيئة . كانت الشرطة النظامية متعثرة ، وقد ظللنا نراوح ساعة قبل أن ندخل: ومع ذلك فقد كان الأمر يستحق الجهد ؛ كان ثمة جميع الأشخاص الذين لهم قيمة في باريس . كانت الشمبانيا جيدة . وينبغي أن أقول إني وجدت السيدة ديغول أفضل جداً مما كنت أتوقع : صحيح انها ليست رشيقة ، فهي ليست طبعاً لينيت فردوليه ، ولكنها ذات مهابة كبيرة .

وسأل جيلبير بصوت لامبال :

– لقد قيل لي ان رجال المال والسياسة هم وحدهم الذين أعطوا حق الطعام، بينما اعطي رجال الفن والأدب حق الشراب فقط ، فهل هذا صحيح ؟

قالت دومينيك في ضحكة صغيرة متشنجة :

– لم نكن ذاهبين الى هناك لنأكل .

ما انذله جيلبير هذا ، فقد طرح على ماما السؤال قصداً ليبدو لها منفّراً !

والتفت دوفرين اليه يقول :

– أصحيح انهم يفكرون باستعمال آلات: I. B. M. لرسم لوحات تجريدية؟

فقال جيلبير ببسمة مدوّرة :

– هذا ممكن . ولكني افترض ان ذلك لن يكون مربحاً .

قالت مدام تيريون بلهجة تعجب :

– كيف ! آلة تستطيع الرسم !

فقال تيريون بلهجة ساخرة :

– الرسم التجريدي . لمَ لا ؟
قال دوفرين :
– أتعرفون أن هناك من يخترع أنغاماً لموزار ولباخ ؟ أجل : النقيصة الوحيدة هي أن آثارهم ليس فيها أية نقيصة ، في حين أن هناك دائماً نقائص لدى الموسيقيين الحقيقيين الذين هم من لحم وعظم !
عجباً ! لقد قرأت ذلك حديثاً ، في مجلة اسبوعية . لقد لاحظت لورانس ، منذ ابتدأت تنظر إلى الصحف ، أن الناس غالباً ما كانوا في محادثاتهم يُلقون مقالات قرأوها . ولِمَ لا ؟ لا بدّ لهم من أن يستمدّوا أنباءهم من جهةٍ ما .
وقال جان – شارل :
– لا نلبث طويلاً حتى تحلّ الآلات محلّ مكاتبنا ومشاغلنا، وسنجد أنفسنا من جديد على الرمل .
فقال جيلبير :
– هذا مؤكد جداً. سندخل عهداً جديداً يصبح فيه البشر لا جدوى منهم.
قال تيريون :
– لسنا نحن . سيبقى هناك محامون دائماً لأنّ أيـة آلة لن تكون قادرة على الفصاحة .
فقال جان – شارل :
– ولكن الناس ربّما يكفـّون عن أن يبقوا حسّاسين إزاء الفصاحة
– كفى ، كفى ! إن الانسان حيوان ناطق ، وهو يتداعى دائماً للافتتان بالكلمة . إن الآلات لن تغيّر الطبيعة البشرية .
– بل هي تغيّرها !
كان جان – شارل ودوفرين على اتفاق (فان مطالعاتهما متشابهة)، إن فكرة الانسان تحتاج الى مراجعة ، ولا شك في أنها ستختفي ، فهي اختراع من القرن التاسع عشر أصبح اليوم بالياً . إن الفنّ في جميع الميادين – الأدب والموسيقى والرسم والهندسة المعمارية – يطـّرح النزعة الانسانية التي كانت

الأجيال السابقة تتبنّاها .

وكان جيلبير صامتاً ، بهيئة لطيفة ، فيما كان الآخرون يتنازعون الكلام . يجب الاعتراف بان هناك كتباً لا يمكن أن تُكتب بعد ، وأفلاماً لا يمكن أن تشاهد بعد ، وموسيقى لا يُمكن أن تُسمع بعد ، ولكن الروائع لا تاريخ لها ، وما هي الرائعة ؟ لا بدّ من حذف المقاييس الذاتية ، وهذا مستحيل ، عفواً بل هـذا جهد النقد الحديث كله ، ومقاييس جائزتي غونكور ورونودو ، أودّ لو أعرفها ، فالجوائز هي اليوم أسوأ منها في العام الماضي ؛ آه ! إن هـذا كله لو تعلمون اتفاقات ناشرين ، وأنا أعرف من مصدر موثوق أن عدداً من أعضاء لجان التحكيم يأخذون الرشوة ، وهـذا معيب ، والأمر أكثر إثارة للخجل بالنسبة للرّسامين ؛ فالدعاية تجعل من أي مُشخبط رجلاً عبقرياً ، وإذا اعتبره الجميع عبقرياً ، فهو عبقري . أيُّ تناقض ، ولكن لا ، ليس ثمة مقياس آخر ، ليس من مقياس موضوعي .

قالت السيدة تيريون بلهجة حاسمة :

– اوه ! ومع ذلك ! إن ما هو جميل جميل !

وصمت الجميع لحظة ، ثم استأنفوا الحديث . . .

وكالعادة ، اختلطت على لورانس أفكارها؛ إنها دائماً تقريباً على رأي مخالف لرأي الذي يتكلم ، ولكنها لفرط ما يختلف الناس فيما بينهم ، فإن الأمر ينتهي بها إلى أن تناقض نفسها . وبالرغم من أن السيدة تيريون بلهاء عريقة ، فاني أميل الى مثل رأيها : إن ما هو جميل جميل ؛ وما هو صحيح صحيح . ولكن ما قيمة هـذا الرأي نفسه ؟ من أين يأتيني ؟ من بابا ، من الليسيه ، من الآنسة هوشيه . لقد كانت لديّ وأنا في الثامنة عشرة قناعات . وما زال باقياً لهـا منها أشياء ، ليست كثيرة ، بـل هي بالأحرى نوع من الحنين . إنك تشكّ في أحكامهـا : فالأمر في نهايـة المطاف أمر مزاج وظروف . إنني لا أكاد أستطيع القول ، حين أخرج من احدى دور السينما ، هل كان الفيلم جميلاً أم لا .

– هل أستطيع أن أتحدث اليك دقيقتين ؟

فحدجت لورانس جيلبير ببرودة وأجابت :
– ليست لديّ أية رغبة في ذلك .
– إنني ألحّ .
فتبعته لورانس إلى الغرفة المجاورة ، بدافع من الفضول ، بدافع من القلق .
وجلسا ، وأخذت تنتظر .
– أردت أن أخبرك أنني سأقطع الصلة بدومينيك . طبعاً ، ليست تلك الرحلة واردة . ثم إن باتريسيا متفهّمة جداً ، إنسانية جداً : ولكنها تعتبر انها انتظرت بما فيه الكفاية . اننا نريد أن نتزوج في أواخر أيار .
كان قرار جيلبير لا رجوع عنه . والعلاج الوحيد هو قتله : ولو حدث هذا لخفّ عذاب دومينيك . وتمتمت :
– لماذا أتيت ؟ إنك تعطيها آمالاً كاذبة بمجيئك .
– لقد أتيت لأسباب عديدة ، لا أتمنى أن أتخذ دومينيك عدوةً لي ؛ وهي قد أدخلت صداقتنا في الأمر . فاذا استطعت بفضل بعض التنازلات أن احقّق هذه القطيعة في جوّ لطيف ، فهذا أفضل ، وهو أفضل بالنسبة اليها أولاً ، ألست من هذا الرأي ؟
– لن تستطيع ذلك .
فاستطرد بلهجة أخرى :
– نعم ، أعتقد ذلك . لقد أتيت أيضاً لأقف على وضعها النفسي . إنها تصرّ على الاعتقاد بان القضية سحابة صيف . وعليّ أن أفتح عينيها .
– ليس الآن !
– إنني عائدٌ الى باريس هذا المساء ...
وأشرق وجه جيلبير ، وتابع يقول :
– إسمعي : إنني أتساءل اذا لم يكن في صالح دومينيك أن تُعدّيها للأمر .
– آه ! هذا هو إذن السبب الحقيقي لحضورك : إنك تريد أن تكلّفني بهذه المهمّة القذرة .

– أعترف بأنني أشمئز من المشكلات العلنية .
– لأنّ خيالك قصير : فليست المشكلات العلنية هي أسوأ الامور ...
وفكّرت لورانس :
– إفعل شيئاً واحداً : أرفض الرحلة ، من غير أن تتحدث عن باتريسيا . إن دومينيك ستكون غاضبة جداً أن تقوم بنفسها بالقطيعة .
فقال جيلبير بلهجة قاطعة :
– تعرفين جيداً ان لا .
وكان على حق . لقد أرادت لورانس أن تصدّق كلمات دومينيك لحظة : « سأعطيه الخيار في القطيعة أو في عدمها » ، ولكنها ظلّت بعد معاتبات وصراخ متمسّكة بالصبر والأمل .
– إن ما سوف تعمله فظيع .
فقال جيلبير بلهجة محزونة :
– إن معارضتك تشقّ عليّ . ليس ثمة من هو سيّد قلبه . إنني لا أحبّ دومينيك بعد ؛ بل أحب باتريسيا : فأين هي جريمتي ؟
كان لكلمة الحبّ في فمه مذاق داعر . ونهضت لورانس .
قال جيلبير :
– سأكلّمها في أثناء الاسبوع . وأرجوك أن تذهبي لتلقيها بعد مقابلتنا .
فنظرت اليه لورانس في حقد :
– لأمنعها من أن تقتل نفسها تاركةً رسالةً تشرح فيها لماذا فعلت ذلك ؟ ستكون لهذا نتيجة سيئة ، دمٌ على ثوب باتريسيا الأبيض ...
وابتعدت . وكانت سراطين تصرُّ في أذنيها ؛ ضجّة فظيعة لعذاب لا بشريّ . واتجهت نحو المشرب فصبّت لنفسها قدحاً من الشمبانيا . وكانوا يملأون صحونهم ، متابعين حديثاً كانوا قد بدأوه .
وقالت السيدة تيريون :
– تلك الطفلة لا تعوزها الموهبة ، ولكن ينبغي أن تتعلم كيف تحسن

ارتداء الثياب ، فهي جديرة بان تلبس قميصاً ساذجاً مع تنورة مخطّطة .

فقالت جيزيل دوفرين :

– ولكن لاحظي إن ذلك ممكن .

قالت دومينيك .

– إن الخياط العبقري يستطيع أن يفعل كل شيء .

واقتربت من لورانس :

– ماذا قال لك جيلبير ؟

– اوه ! كان يريد أن يوصيني بحفيدة صديقٍ له تهتمّ بالاعلان .

– صحيح ؟

– إنك لا تتصوّرين أن جيلبير سيحدّثني أنا عن علاقاته بك أنت ؟

– كلُّ شيء معه ممكن ، ألا تأكلين شيئاً ؟

كانت شهية لورانس مقطوعة . وقد ارتمت على أريكة وتناولت مجلة . وأحسّت أنها غير قادرة على خوض محادثة . سيكلّمها في أثناء الاسبوع . من يستطيع مساعدتي على تهدئة دومينيك ؟ لقد أحسّت لورانس هذا الشهر بعزلة أمّها . إن لها كتلةً من العلاقات : وليست لها صديقة . ليس لها من هو جدير بالاستماع اليها أو حق بالهائها . فكيف لنا أن نحتمل وحدنا هذا البناء المهدّد الى الى هذا الحدّ ، حياتنا ؟ أيكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الجميع ؟ مهما يكن من أمر ، فانّ لي أنا أبي . والحقّ ان جان – شارل لن يجعلني أبداً شقية .

ورفعت عينيها اليه . كان يتكلم ويضحك ، ويضحكون من حوله ؛ إنه يروق للناس ما أن يهتمّ بذلك . ومن جديد ، صعدت في قلب لورانس حفنة من حنان . لقد كان من الطبيعي ، بعد كل حساب ، أن يكون عصبياً في الأيام الأخيرة . إنه يعرف ما هو مدين به لفرنيي ، ولكنه لا يستطيع أن يضحّي من أجله بكل مطامحه . وهذا الصراع هو ما كان يثير أعصابه . إن له حسّ النجاح ، ولورانس تفهم ذلك . إن العمل سيكون على غاية الضجر والإملال إذا لم يصرّ المرء على ملاحقة أهدافه رغم كل العقبات .

قال جيلبير بلهجة احتفالية :

ــ انني آسف يا عزيزتي دومينيك ، فأنا مضطر إلى الذهاب .

ــ أليس الوقت مبكراً ؟

قال جيلبير :

ــ لقد جئت قبل الأوان لأن عليّ أن أذهب في ساعة مبكرة .

واستدار يودّع المدعوين وداعاً سريعاً . وخرجت دومينيك من البيت معه.

وأومأ جان ــ شارل الى لورانس :

ــ تعالي . إن تيريون يروي لنا حكايات مثيرة عن دعاويه .

كانوا جميعاً جالسين ، ما عدا تيريون الذي كان يذرع القاعة جيئة وذهاباً وهو يحرّك كمّي ثوب خيالي . وقال لجيزيل :

ــ ما هو رأيي بزميلاتي ، يا سيدتي ؟ هو رأي جيد جداً ؛ فكثيرات منهنّ نساء لطيفات ، وكثيرات منهن موهوبات (وبالإجمال لسن متشابهات) ولكن هناك شيء أكيد : فليس ثمة واحدة قادرة على المرافعة في محكمة الجنايات. إنهنّ لا يملكن القدرة ولا السلطة اللازمتين ، بل انني سأدهشكم اذا قلت انهن لا يملكن الحسّ المسرحي اللازم .

فقال جان ــ شارل :

ــ لقد عرفنا نساء نجحن في مهن كانت تبدو ممتنعةً عليهنّ .

فقال تيريون :

ــ أقسم لكم إنني ألتهم بلقمة واحدة أشدّهنّ دهاء وفصاحة !

قال جان ــ شارل :

ــ ربما حصلت لك مفاجئات . أما أنا ، فأعتقد أن المستقبل للنساء .

فقال تيريون :

ــ ربما ، ولكن شريطة الاّ يقلّدن الرجال كالقرود .

ــ إن القيام بمهنة الرجل لا تعني تقليد الرجل كالقرود .

قالت جيزيل دوفرين :

– إسمع يا جان – شارل ، لا تقل لي ، أنت المطلع على كل شيء ، إنك تؤيد النساء . إن هذه النزعة قد تجووزت اليوم .

تأييد النساء : إن الحديث عن ذلك يجري طوال الوقت في هذا الوقت . وسرعان ما كانت لورانس تغيب . إن هذا أشبه بعلم الطب النفسي ، والسوق المشتركة ، والقوة الضاربة ، فهي لا تدري كيف تكوّن رأياً في ذلك ، بل ليس لها فيه رأي . إن عندي « حساسية » .

ونظرت إلى أمها التي عادت إلى القاعة وعلى شفتيها بسمة مقتسرة . غداً ، بعد يومين ، في هذا الاسبوع ، سيقول لها جيلبير كل شيء . لقد انفجر الصوت، وسينفجر في زاوية الراحة الصمت : « نذل قذر ! نذل قذر ! » وتمثّلت لورانس من جديد الزهور التي كانت تشبه طيوراً شرّيرة . وحين عادت الى نفسها ، كانت السيدة تيريون تتكلم في حماسة :

– إن التجريح النظامي شيء منفّر . على أن ذلك فكرة جميلة : ففي عشاء ٢٥ كانون الثاني ، الذي أقيم لصالح الطفولة الجائعة ، قدّموا لنا لقاء عشرين الف فرنك طعام الهنود الصغار : صحن أرز مع قدح ماء . وكان أن أخذت صحافة اليسار تضحك فماذا تراهم يقولون اذا كنّا نأكل الكافيار والكبد المسمّنة ؟

قالت دومينيك :

– انتقاد كل شيء ممكن دائماً . وليس أمامنا إلا أن نتركهم يفعلون .

وكانت غائبة الهيئة ، فهي تجيب على السيدة تيريون بشرود ، بينما جلس الأربعة الآخرون حول طاولة بريدج ؛ وفتحت لورانس « الاكسبريس » : كانت الأحداث مرويّة في أعمدة دقيقة ، فكانت تُلتهم كفنجان حليب ! ليس ثمة أية خشونة ، وليس ثمة ما يعلّق أو يخدش . وأحسّت بالنعاس ، ونهضت على عجل حين تركت السيدة تيريون طاولة البريدج وهي تصرح :

– إن عندي غداً نهاراً مثقلاً . فنحن مضطران إلى الذهاب .

قالت :

– وأنا صاعدة لأنام .

قالت السيدة تيريون :

– لا بدّ إن النوم هنا رائع . وأعتقد أن لا حاجة الى المنوّمات . أما في باريس فلا يُستغنى عنها .

قالت جيزيل دوفرين :

– وأما أنا فقد أوقفت المنوّمات منذ بدأت أتناول أقراص التهدئة .

وقال جان – شارل بمرح :

– حاولت واحداً من اسطواناتهم المهدهدة ، ولكن ذلك لم يهدهدني على الاطلاق .

قال تيريون :

– لقد حدّثوني عن جهاز مدهش يعمل على الكهرباء ويطلق اشارات ضوئية ، رتيبة وباهرة تجلب لك النوم ، وهو يكفّ عن العمل تلقائياً . سوف أوصي على جهاز منه .

قالت لورانس :

– أما أنا ، فلست الليلة بحاجة الى شيء من هذا كله .

ساحرة حقاً هذه الغرف : كانت ممدودة بقماش « جوي » ، مع سرر ريفية ، وأغطية من « باتشورك » ، وعلى المغسلة إناء من خزف . وكان مشقوقاً في الجدار باب يكاد لا يُرى يُفضي الى حمّام . وقد اطلّت من النافذة واستنشقت رائحة أرض باردة . بعد قليل سيأتي جان – شارل : إنها لا تريد أن تفكر بعدُ إلاّ فيه ، بوجهه الجانبيّ المضاء بنور اللهب الراقص . وفجأة ، كان هناك ، وأخذها بين ذراعيه ، فأصبح الحنان في عروق لورانس دفقةً محرقة ، فترّتحت شهوةً بينما كانت شفاهها تلتقي .

– يا صغيرتي الحبيبة ! إنك لست خائفة أكثر مما ينبغي ؟

فقالت لورانس :

ـ لا ، كنت مسرورة جداً أني لم أسحق راكب الدراجة .

وأسندت رأسها الى مسند الأريكة الجلدية المريحة . إنها الآن ليست بعد مسرورة إلى ذلك الحدّ ، من غير أن تعرف سبب هذا .

ـ هل تريدين فنجان شاي ؟

ـ أوه ! لا تزعج نفسك .

ـ خمس دقائق فقط .

لعبة البارمانتون ، تلفزيون : كان الليل قد هبط حين ذهبنا ؛ ولم أكن أسوق بسرعة ؛ وكنت أحسّ حضور جان ـ شارل إلى جانبي ، وأتذكّر ليلتنا ، وأنا أستكشف الطريق بنظري . وفجأة ، انبثق من ممرّ الى يميني راكب دراجة أحمر الشعر في ضوء المصباحين . وأوقفت السيارة إيقافاً مفاجئاً، فانحرفت وانقلبت في الحفرة .

ـ هل أصبتَ بشيء ؟

فقال جان ـ شارل :

ـ لا شيء . وأنتِ ؟

ـ لا شيء .

وقطع التيار الكهربائي . فانفتح الباب .

ـ هل جُرحتما ؟

ـ لا .

كانت عصبة من راكبي الدراجات ـ من الفتية والفتيات ـ تحيط بالسيارة التي كانت قد تسمّرت ، ومقدّمتها إلى أسفل ، وعجلاتها ما تزال تدور ؛ وصحت بصاحب الشعر الأحمر :

ـ يا لك من أبله !

ولكن أيّ عزاء ! كنت قد ظننت أني مررت على جسمه . وارتميت بين ذراعي جان ـ شارل : « يا حبيبي ! كان حظّنا كبيراً . ليس ثمة أيّ خدش ! » ولم يكن يبتسم :

– ولكن السيارة حُطام !
– هذا صحيح . ولكن هذا أفضل مما لو كنت أنت أو أنا .
وتوقّف بعض سائقي السيارات ؛ وشرح أحد الفتية :
– هـــذا الأبله ، لم يكن ينظر إلى شيء ، فارتمى على السيارة ؛ وإذ ذاك انحرفت السيدة الصغيرة الى اليسار .
وكان صاحب الشعر الأحمر يتمتم بالاعتذارات ، والآخرون يشكرونني . . .
– إنه مدينٌ لك بشمعة معتبرة !
وعلى حافة هذه الطريق المبتلّة ، إلى جانب السيارة المحطمة ، كان جــذل يصعد فيّ مسكراً كأنه الشمبانيا . وكنت احبّ راكب الدراجة هـــذا الأبله لأنني لم أقتله ، ورفاقه الذين كانوا يبسمون لي ، وهؤلاء المجهولـــين الذين كانوا يعرضون علينا أن يحملونا إلى باريس . وفجأة ، أخـذ رأسي الدوار ، وفقدت وعيي .
واستردّت وعيها في قلب مستشفى . ولكنها لا تكاد تذكر هـذه العودة : لقد أصيبت ، رغم كل شيء ، بصدمة . وكان جان – شارل يقول إنـه ينبغي شراء سيارة أخرى ، وإنه ليس بالإمكان استخراج مئتي الف فرنـــك من بقايا تلك السيارة . كان مستاء ، وهذا مفهوم ؛ ولكن ما كانت لورانس تفهمه أقلّ من ذلك هو أنه كان يبدو عاتباً عليها . ليست الغلطة ، على كل حال ، غلطتي ، بل أنا فخورٌ أن نكون قد اضطجعنا في الحفرة على هذا النحو الرقيق ؛ ولكن جميع الأزواج ، في نهايـة المطاف ، مقتنعون بأنهم وراء المقود يتدبّرون أمرهم خيراً من نسائهم . نعم ، أذكر ، لقد كان من سوء النية بحيث أني حين قلت قبل أن نأوي إلى النوم : « لم يكن ممكناً لأحد أن يخرج من هذا الحادث دون أن يحطم السيارة » أجاب : « إنني لا أجد هذا بارعاً على الإطلاق ؛ فنحن لم نؤمّن السيارة إلاّ ضد الغير » .
– ولكنك لم تكن تريد طبعاً أن أقتل الرجل ؟
– إنك لن تقتليه . كنت ستحطـّمين له ساقاً . . .

– بل كان من الممكن جداً أن أقتله .

– لو حصل ذلـك ، لما كان يكون مظلوماً . إن الجميع كانوا سيشهدون لصالحك .

قال هذا من غير أن يعني أية كلمة فيه، وإنما قاله ليسوءني ، لأنه كان مقتنعاً بانه كان بوسعي أن أخرج من الحادث بأضرار أقلّ . وكان هذا خطأ .

قال أبوها وهو يضع الصينية على طاولة تغطّيها الصحف :

– هذا هو الشاي ، مزيج خاصّ . وأنت تعرفـين عمّ أتساءل : لو كانت الصغيرتان معك في السيارة ، أكنت تتصرفين التصرّف نفسه ؟

قالت لورانس :

– لا أدري .

وتردّدت . ثم فكـّرت : « إن جـان – شارل هو انا أخرى . إننـا متضامنان . وقد تصرّفت كما لو كنت وحدي . امـا أن أعرّض بنيّ للخطر حتى أوفّر شخصاً مجهولاً ، فأيُّ عبث هذا ! وجان – شارل ؟ إنـه هو الذي كان جالساً في مكان الميت . وهو على حق ، بعد كل حساب ، أن يغضب .

واستطرد أبوها :

– أمس ، مع البنتين كنت مستعداً لهـدم أحد النـُزُل ، بدلاً من التعرّض لأية مجازفة .

قالت لورانس :

– كم كانتا مسرورتين . لقد عاملتهما كأنهما ملكتان .

– آه ! لقد أخذتهما الى أحـد تلك الفنادق حيث ما يزال الناس يأكلون « كريما » حقيقية ، وفرّوجاً مغذّى بالحبوب الجيّدة ، وبيضاً حقيقياً . هـل تعلمين أنهم في الولايات المتحدة يغذُّون الدجاج بالأُشنة ، وأن من الواجب زرق البيض بنتاج كيمائي لإعطائه مذاق البيض ؟

– هذا لا يدهشني . كانت دومينيك قـد جلبت لي من نيويورك شوكولا معطّرة كيميائياً بالشوكولا .

وضحكا معاً. من يظنُّ أني أنا لم أقض قط معه عطلة من عطل نهاية الاسبوع؟ إنه يقدّم الشاي في فناجين ناقصة . وكان ثمّـــة ضوءٌ مركّب على مصباح زيتي قديم ينير الطاولة التي كان مفتوحاً عليه مجلّد من مجلّدات « لابلياد » : إنه يملك المجموعة الكاملة . ولم تكن به حاجةٌ لتعذيب خياله من أجل أن يتسلّى .

وقال :

– إن لويز خبيثة تماماً . أمـــا كارين فهي تشبهك أكثر . وحين كنتِ في سنّها كنتِ في مثل هذه الجدّية والرصانة .

قالت لورانس :

– نعم ، لقد أشبهتها . (هل تشبهني هي ؟)

– وأنا أرى أن خيالها قد نما كثيراً .

– هل تصدّق أن مارت تدعوني الى أخذها للمناولة ؟

– هي تحلم بأن تردّنا جميعاً للايمان . إنها لا تعظ : بل تقدّم نفسها مثالاً . وكأنها تقول : انظروا كم يبدّل الايمان امرأةً وأيّ جمال داخلي تبلغه ! ولكن المسكينة ... ليس من اليسير جعل الجمال الداخلي خارجياً ..

– إنك خبيث !

– أوه ! إنها فتاة طيبة . إنك أنت وأمك تحقّقان عملين لامعين؛ أما مهنة أمّ الأسرة ، فمهنة باهتة جداً : فهي لذلك تتجه الى القداسة .

– وان يكون هوبير هو وحده شاهد حياتها ، فهذا بالطبع غير كاف .

– مَنْ كان حاضراً في « فوفرول » ؟

– جيلبير مورتيه ، ودوفرين وزوجته ، وتيريون وزوجته .

– إنها تستقبل هذا الوغد ! أنت تذكرين حين كان يأتي إلى البيت . فـــلا يكفّ لحظة عن الكلام والخطابة ، من غير أن يكون لكلامه معنى . أما أنا ، فقد كنت أنطلق في الحياة خيراً منه ، من غير ادّعاء . لقد تدبّر أمر حياتـــه كلّها بالدسائس والدعاية . وهذا ما كانت دومينيك تريدني أن أصبحه !

– لم تكن تستطيع ذلك .

– بل كنت أستطيع لو انني قمت بما قام به من قذارات .
– هذا ما أقصده .

عـدم فهم دومينيك . « لقد اختار التوسّط » لا . حيـاة بلا عسف ولا إيذاء ، تملك الوقت للتفكير والتثقّف ، بدلاً من العيش المضطرب الذي يحياه من يعيش في وسط ماما ، والذي أحياه أنا أيضاً .

– حال امّكِ ما تزال جيدة ؟

فتردّدت لورانس :

– الأمور معقّدة بينها وبين جيلبير مورتييه . أعتقد انه سيتركها .

– لا بدّ أنها مندهشة تماماً ! إنها أذكى من ملكة جمال العالم وأجمل في العين مما كانت السيدة روزفلت : فهي تظنّ نفسها متفوقة على جميع النساء .

– إنها الآن شقية .

كانت لورانس تفهم قسوة أبيها ، ولكن دومينيك تثير شفقتها .

– لقد فكرت بما قلته لي عن الشقاء . إنه موجود على أي حال . إنك تسيطر على المواقف . ولكن ذلك ليس في متناول الجميع .

– إن ما أستطيعه يستطيعه الجميع . فلست استثناء .

فقالت لورانس بحنان :

– بل أنا أجد ان بلى . فالوحدة مثلاً ، ليس هناك كثيرون يستطيعون تحمّلها .

– لأنهم لا يحاولون ذلك باخلاص. إن أعظم مباهجي انما أتتني من الوحدة .

– هل أنت حقاً مسرور بحياتك ؟

– إنني لم أفعل قطّ ما اؤاخذ نفسي عليه .

– إنك لمحظوظ .

– وأنتِ ، ألست مسرورة من حياتك ؟

– أوه بلى ! ولكنني اؤاخذ نفسي على أشياء ؛ انني أهتمُّ أقـلّ مما ينبغي بابنتيّ ؛ وأراك أقل مما ينبغي .

– إن لك بيتك ومهنتك .

– صحيح ، ولكن مع ذلك ...

وقالت في نفسها : لولا لوسيان لكنت أملك وقتاً أكبر ، ولكنت أرى أبي أكثر ، ولكان بوسعي ، على غراره ، أن أقرأ وأفكر . إن حياتي محمّلة أكثر مما ينبغي .

– إنني الآن مضطرة للعودة الى البيت .

ونهضت :

– إن شرابك الممزوج لذيذ .

– ولكن قولي لي ، هل أنت متأكّدة من أنّك غير مصابة برضوض داخلية ؟ يجب عليك أن تستشيري طبيباً .

– لا ، لا . إن حالتي حسنة جداً .

– ماذا ستعملين بلا سيارة ؟ أتريدين أن أعيرك سيارتي ؟

– لا ، لا أريد أن أحرمك منها .

– هذا لن يحرمني ؛ فأنا نادراً ما أستعملها . إنني أفضّل أن أتسكّع على قدميّ كثيراً .

وفكّرت في انفعال وهي تجلس إلى المقود : إنه هو تماماً . لا ينخدع بأحد بل يستطيع أن يصمد للجميع . غير أنه شديد الحضور ، شديد التنبّه ومستعد دائماً ليؤدّي خدمة الآخرين . وكانت ما تزال تحسّ حولها بظلّ بيته الدافىء . يجب أن أتخفّف من أعباء حياتي . يجب أن أتخلّص من لوسيان .

وقرّرت : « هذا المساء بالذات » لقد قالت انهـا خارجة مع « مونا » ؛ وصدّقها جان – شارل ، وهو يصدّقها دائماً ، لقصورٍ في خياله . إنه لا يخونها بكل تأكيد ، ولا تنتابه فكرة الغيرة عليها .

– هذا المكان جميل ، أليس كذلك ؟

فقالت :

– جميل جداً .

بعد ساعةٍ قضتها في منزل لوسيان ، ألحّت على الخروج . وكان يخيّل اليها انّ من الأسهل التحدّث في مكان عام مما هو في صميمية غرفة . وأصطحبها إلى ملهىً أنيق من ملاهي أول القرن : أضواء خافتة ، مرايا ، نبات أخضر ، زوايا خفيّة فيها أرائك طويلة . لقد كان بامكانها أن تختلق هذا الاطار لتُبرز في أحد الأفلام قيمة صنفٍ من أصناف الشمبانيا أو الخمر القديم . واحدٌ من مساويء المهنة : إنها تعرف أكثر مما ينبغي كيف يتكوّن ديكورٌ ما ، فهو يتحلّل تحت نظرها .

– ماذا تأخذين ؟ إن عندهم أنواعاً مشهورة من الويسكي .

– أطلب لي منها كأساً ، ستشربها أنت .

– أنت جميلة هذا المساء .

فابتسمت بلطف :

– تقول لي ذلك كلّ مرة .

– وهذا صحيح كل مرة .

وألقت نظرة الى المرآة . امرأة جميلة مرحةٌ بحذر ، ذات مزاج وتحفّظ : هكذا يراني لوسيان . وكان ذلك يروق لي . أما في نظر جان – شارل فهي فعّالة ، مستقيمة ، صافية الذهن ، وهذا خطأ أيضاً . جميلة في العين ، هذا صحيح . ولكنّ كثيرات من النساء هنّ أجمل . تلك سمراء برّاقة ، ذات عينين كبيرتين خضراوين تحيط بهما جفون مستعارة كبيرة ، ترقص مع شاب أصغر منها سناً بقليل : انني أفهم أن يفقد رجلٌ عقله من أجل مثل هذه المخلوقة . انهما يتبادلان البسمات ، ويتلامس خدّاهما أحياناً . أهو الحبّ ؟ اننا نحن أيضاً نتبادل البسمات ، وتتلامس أيدينا .

– ليتك تعرفين أيّ عذاب تشكله نهايات الاسبوع هذه ! ليلة السبت ... إنني أستطيع أن أشكّ في الليالي الأخرى . أما هذه فأعرفها . إنها هوّة حمراء في قلب اسبوعي . ولقد شربت حتى ثملت .

– لقد كنت على خطأ كبير . فليس لهذا مثل هذه الأهمية .

– ومعي أيضاً ليس لهذا مثل هذه الأهمية .

فلم تجب ، كم أصبح مملاً ! إنه يقضي الوقت كـله في العتاب . واذا وجّه لي عتاباً آخر ، فسأجيبه : في الواقع ...

واقترح عليها :

– هل تنهضين لنرقص ؟

فلنرقص .

وردّدت لنفسها : « هذا المساء بالذات » . لماذا بالضبط ؟ ليس بسبب ليـلة « فوفرول » ، فانه لا يزعجها أن تنتقل من سرير الى آخر : فالأمر متشابـــهٌ تماماً . ثم إن جان – شارل قد أثلجها حين ارتمت ، بعد الحادث ، بين ذراعيه فقال بجفاء : « لقد أصبحت السيارة حطاماً . » إنما السبب الحقيقي ، الوحيد ، هو أنّ الحبّ مزعج جـداً حين يكفُّ المرء عن ان يحبّ . كلّ هـــذا الوقت الضائع . وكانا صامتين ، كما لو انهما غالباً ما صمتا ؛ ولكن أوراه يشعر انـه ليس هو الصمت نفسه ؟

وتساءلت وهي تعود للجلوس على الأريكة : « والآن كيف أتأتـى للأمر؟ » وأشعلت سيكارة . إن جان – شارل يقول إن الناس يدخنون السكاير دائمـاً في الروايات ذات الطراز القديم ، وهذا شيء مصطنع . ولكن الناس غالباً مـــا يفعلون ذلك في الحياة حين يكونون بحاجة الى التماسك .

قال لوسيان :

– أنت أيضاً تستعملين أعواد الثقاب ؟ أنت التي تملكين الذوق المرهف ؟ ما أبشع ذلك !

– ولكنه سهلٌ مناسب .

– كم أتمنى أن أقدّم لك قدّاحة جميـلة . جميلة حقاً . من ذهب . ولكن لا أملك حتى حقّ ان أقدّم لك هدية .

– كفى ! كفى ! إنك لم تقصّر في ذلك .

– كانت تلك أشياء تافهة .

كانت تقول عن العطور والوشاحات انها نماذج دعائية . أمـــا بالنسبة لعلبة مساحيق أو لقداحة من ذهب ، فإن جان – شارل جدير بأن يستغرب !

– أنت تعلم أني لست متعلقة بالحاجيات . وقد نفـّرني منها ما أقوم بـه من الدعاية لها ...

– إنني لا أفهم العلاقـــة . إن شيئاً جميلاً مرصودٌ للبقاء ، وهو محمّـــل بالذكريات . وهذه القدّاحة بالذات هي التي أشعلت بها سجايرك حين جئت الى منزلي للمرة الأولى .

– ليس المرء بحاجة الى هذا لكي يتذكـّر .

والحق أن لوسيان هو أيضاً يعيش خارج نفسه ، بطريقة مختلفة عن طريقه جان – شارل . وأنا لا أعرف من هو مختلف إلاّ بابا . إنّ أماناته قائمةٌ فيه ، لا في الأشياء .

وسأل لوسيان :

– لماذا تحدثينني بهذه اللهجة؟ لقد أردت أن نخرج، فخرجنا؛ إنني أفعل كل ما تريدين . وتستطيعين أن تكوني أكثر لطفاً .

فلم تجب بشيء .

– إنك طوال السهرة لم تقولي لي كلمة رقيقة .

– لم تكن هناك مناسبة .

– لن تكون هناك مناسبة أبداً .

وقالت في نفسها : « هذه هي اللحظة المناسبة » . إنـــه سيتألم قليلاً ، ثم يتعزّى . وفي هذه الدقيقة بالذات ، أكوام من العشّاق يقطعون علاقاتهم ؛ وبعد عام ، لن يفكـّروا بهذا بعدُ أبداً .

– اسمع ، إنك لا تكفُّ عن العتاب . فالأفضل أن نتكاشف بصراحة .

فقال في حيوية :

– ليس لديّ ما أكشفه لك . ولست أطلب منك شيئاً .

– بلى ، بصورة لا مباشرة . وأريد أن أردّ عليك . إنني أحتفظ لك بأكبر المحبّة ، وسأحتفظ بذلك أبداً . ولكنني لا أحبك بعدُ حبّاً . (وهل فعلت ذلك من قبل ؟ هل لهذه الكلمات من معنى ؟)

وساد صمت . وكان قلب لورانس يخفق خفقاً أسرع ، ولكنّ الأشقّ قد مضى . لقد لُفِظت الكلمات النهائية . يبقى إنهاء المشهد .

وقال لوسيان :

– أعرف ذلك منذ وقت طويل ، فلماذا تحسّين الحاجة الى أن تقوليه لي ، هذا المساء ؟

– لأن علينا أن نستخرج من ذلك النتائج . فإذا لم يكن هذا حبّاً بعد ، فالأفضل أن نمتنع عن النوم معاً .

– أنا أحبك . وهناك كثيرون ينامون معاً من غير أن يكون ثمة حب مجنون .

– إنني لا أرى مبرّراً لفعل ذلك .

– بكل تأكيد ! فأنت تملكين كل ما تحتاجين اليه في البيت . وأنا ، أنا الذي لا أستطيع بعدُ الاستغناء عنك ، فاني أصغر همومك .

– على العكس . فأنا انما أفكّر بك أنت قبل كل شيء . أنت غالباً ما تقول إنني أمنحك أقل جداً مما ينبغي ، أعطيك فُتاتاً . إن امرأة أخرى ستجعلك أكثر سعادة .

– يا لها من مساعدة مؤثّرة !

وترنّح وجه لوسيان ، فتناول يد لورانس :

– أنت لا تتكلمين جادّة ! وقصتنا كلها ، وليالي الهافر ، والليالي في غرفتي ، وفرارنا إلى بوردو ، أتمحين كلّ شيء ؟

– لا . سأذكر ذلك دائماً .

– لقد بدأت تنسينه .

إنه يبتهل الى الماضي ، ويتخبّط ؛ وهي تعطيه الجواب بهدوء ؛ وذلك بلا

جدوى تماماً، ولكنها تعرف ما يكون المرء مديناً به لشخصٍ يريد أن يتركه؛ سوف تستمع اليه بلطف حتى النهاية ، فهذا أقلُّ الأشياء . وقد نظر إليها بهيئة متّهِمة :

– فهمت ! هناك رجل آخر !

– أوه ! َمن كان يعيش حياتي ...

– الواقع ان لا ؛ فأنا لا أعتقد ذلك . إنك لم تحبّيني. وأنت لا تحبين أحداً. إن هناك نساء باردات في السرير . أما أنت ، فأسوأ . انك مصابةٌ ببرودة في القلب .

– ليست هذه غلطتي .

– واذا قلت لك اني ذاهب لأحطم رأسي في شارع السيارات ؟

– لن تكون بليداً لهذا الحدّ . هيّا ،لا تجعل من ذلك مأساة ، واحـــدةٌ تخسرها ... كم هم قابلون للمبادلة ، الناس ...

– إن ما تقولينه هنا فظيـع .

ونهض لوسيان :

– لنعُدْ . إنك تعطينني الرغبة في ضربك .

ومضت بها السيارة صامتين حتى مـــنزل لورانس ، وهبطت فظلّت لحظة متردّدة على حافة الرصيف . ثم قالت :

– الى اللقاء .

– لا ، ليس الى اللقــاء ؛ إنّ محبّتك تستطيعين أن تدخليها في مؤخّرتك . سوف أغيّر وضعي ، ولن أراك بعدُ طول حياتي .

وصفق باب السيارة ، وانطلق . ولم تكن كثيرة التخر بنفسها ، كما انهـا لم تكن مستاءة . وقالت : « كان لا بدّ من أن أفعل ذلـــك » . وهي لا تعرف جيداً لماذا .

التقت لوسيان اليوم في بوبلانف ، ولكنهما لم يتبادلا الكلام . والساعة الآن

العاشرة مساء . انها ترّتب غرفتها ، واذ بها تسمع جرس التلفون وصوت جان۔ شارل :

– لورانس ! إن أمك تريد أن تتحدث اليك .

فعجّلت تقول :

– أهذه أنت ، يا دومينيك ؟

– نعم ، تعاليْ فوراً .

– هل هناك شيء ؟

– سأقوله لك .

– انني آتية .

وأخذ جان – شارل كتابه من جديد ؛ وسأل بلهجة ضجرة :

– ماذا هناك ؟

– أعتقد أن جيلبير قد تكلم .

– ما أكثرها تعقيدات !

وارتدت لورانس معطفها ، وذهبت تقبّل ابنتيها . فقالت لويز :

– لماذا أنت ذاهبة في هذه الساعة ؟

– إن ماما مريضة بعض الشيء ، وقد طلبت مني أن أشتري لها أدوية .

وهبط بها المصعد إلى المرأب حيث صفّت السيارة التي كانت قد استعارتها من أبيها . لقـــد تكلم جيلبير ! وتراجعت الى خلف ، ثم خرجت بالسيارة . هدوءاً، هدوءاً ، ولأتنفّس تنفّساً عميقاً عدة مرات . يجب أن أحتفظ برباطة جأشي ، وألاّ أقود أسرع مما يجب .

ومن حسن الحظّ انها وجدت مكاناً على الفور فصفّت بجانب الرصيف. وظلت لحظـة لا تتحرك في أسفل السلم . ولم تكن تملك الجرأة على الصعود ، وعلى دقّ الجرس . ما الذي ستجده خلف الباب ؟ وصعدت ، ودقت الجرس .

– ماذا جرى لك ؟

فلم تجب دومينيك . وكانت مسرّحـــة الشعر ، آخذة كل زينتها ، ولكن

نظرها كان جافاً ، وكانت تدخّن بعصبية . ثم قالت بصوت مكتوم :

– لقد خرج جيلبير الساعة .

وأدخلت لورانس الى غرفة الاستقبال :

– إنــه نذل قذر . ملك القذرين . وكذلـــك زوجته . جميعاً . ولكنني سأدافع عن نفسي . إنهم يريدون جلدي : ولكنهم لن يحصلوا عليه .

فسألتها لورانس بنظرها؛ وجعلت تنتظر؛ وكانت الكلمات تكاد لا تتشكل في فم دومينيك :

– ليست لوسيل ، بل باتريسيا . تلك البلهاء ، سيتزوّجها .

– يتزوجها ؟

– يتزوجها . هــل تتصوّرين ؟ إنني أتمثّل ذلك منذ الآن . عرس كبير في « القصر » وحوله زهر البرتقـــال . في الكنيسة ، باعتبار انه لم يكن مـــع ماري – كلير قد مرّ بالسيد الكاهن . وأرى لوسيل منفعلة متأثّرة ، تبدو أمّاً صبية للعروس . لا . إن هذا لمضحك حتى التشنّج !

وانفجرت ضاحكة ، ورأسها مقـلوب إلى خلف ، وهي مستندة الى ظهر الأريكة ؛ وظلّت تضحك وتضحك ، وعينها ثابتـة ، ووجهها أبيض ، وتحت جلد العنق كانت حبالٌ غليظة تـــبرز ، واذا هي فجأة عنق امرأة عجوز . في هذه الحالات ، يجب صفع الناس أو قذف وجوههم بالمـــاء . ولكن لورانس لا تجرؤ . بل اكتفت بالقول :

– هدّئي نفسك . أرجوك ، هدّئي نفسك !

وكانت نارٌ من خشب تحتضر في الموقد ، والجوُّ حارّ جداً .

وتوقّف الضحك ، وسقط رأس دومينيك الى أمام ، وامحّت حبال العنق، واسترخى الوجه . كان يجب أن تتكلم فوراً .

– هل قبلت ماري – كلير الطلاق ؟

– إنها على غايـة السعادة : إنها تكرهني . وأنا أفترض انهـــا ستشارك في العرس . .

وانسحقت قبضة دومينيك على ذراع الأريكة :

– لقد صارعت طوال حياتي . وتلك الحمارة الفرج تصبح وهي في العشرين امرأة واحدٍ من أغنى رجال فرنسا . وستكون ما تزال شابة حين يفطس تاركاً لها نصف ثروتها . أتجدين ذلك عادلاً ؟

– أوه ! العدالة . اسمعي : لقد بلغت ما بلغته بفضلك وحدك ، وهذا جميل جداً . لم تحتاجي الى أحد . هذا يدلّ على قوتك . أريهم أنك قوية وانك غير مهتمّة بجيلبير . .

– أتجدين جميلاً أن يبلغ المرء بنفسه ما يريد ! إنك لا تعرفين ما يعني ذلك . ما يجب عمله ، ومعاناته ، ولاسيما حين تكونين امرأة . لقد كنت طوال حياتي مذلّة . ومع جيلبير . . .

وانكسر صوت دومينيك :

– مع جيلبير كنت أحسّني محميّة ، في أمان ، أخيراً في سلام ، بعد تلك السنوات الكثيرة . .

قالت هذه الكلمات بلهجة لم تتمالك لورانس نفسها معها من الاندفاع نحوها . الأمان ، السلام . يخيّل اليها أنها تلمس حقيقة هذه الحياة التي كانت شديدة الحرص عادة على التخفّي .

– حبيبتي دومينيك ، يجب أن تكوني ممتزة بنفسك ، وأن تكفي عن الإحساس بالذلّ . إنسي جيلبير ، إنه لا يستحقّ أن تتحسّري عليه . إنّ هذا طبعاً قاسٍ ، وسيستغرق بعض الوقت ، ولكنك ستتغلبين عليه .

– أليس مذلاً أن يُلقى بالمرء الى الحثالة كبلبل عجوز ؟ آه ! إنني لأسمعهم يقهقهون . . .

– ليس هناك ما يستدعي القهقهة .

– سيقهقهون مع ذلك !

– سيكونون إذن بلهاء . فلا تهتمّي بهم .

– ولكنني لا أستطيع . إنك لا تفهمين . أنت كأبيك ، تسبحين خارج

العالم . أما أنا ، فمع هؤلاء أعيش .

– انقطعي عن رؤيتهم .

– ومَنْ أرى ؟

وبدأت الدموع تجري على وجه دومينيك المتقع :

– إنه لفظيع أن أبدأ الشيخوخة . ولكنني كنت أقول إنّ جيلبير سيكون موجوداً ، سيكون موجوداً دائماً . ثم يزول هذا ، عجوز ووحيدة : هذا فظيع .

– لست بالعجوز .

– سأكون عجوزاً .

– ولست وحيدة . إنني لك . اننا لك .

وظلت دومينيك تبكي . كان ثمة تحت الأقنعة امرأة من لحم ودم ، ذات قلب تحسُّ نفسها تشيخ ، وترعبها الوحدة ؛ وتمتمت :

– إن المرأة بلا رجل هي امرأة وحيدة .

– ستلتقين رجلاً آخر . وفي انتظار ذلك ، لديك عملُك .

– عملي ؟ أتظنين أنّ هذا يحمل لي شيئاً ما ؟ في الماضي ، نعم ، لأنني كنت أريد أن أصل . أما الآن ، فقد وصلت ، وأنا اتساءل إلامَ وصلت ؟

– الى ما كنت تريدين بالذات . إن لك مركزاً لا مثيل له . وأنت تقومين بعملٍ مشوق .

ولم تكن دومينيك تصغي . كان بصرها مسمّراً في الجدار ، قبالتها .

– امرأة واصلة ! هذا من بعيد ذو أهمية . أما حين تجدين نفسك وحيدة في غرفتك ، عند المساء ... وحيدة نهائياً .

وارتعشت ، كما لو انها كانت خارجة من رجفة :

– انني لن أحتمل ذلك !

« بل ستحتمل ، ستحتمل » هكذا كان يقول جيلبير . صحيح هذا أم لا ؟

– سافري . إذهبي الى بعلبك بدونه .

– وحدي ؟

– مع صديقة .

– هل تعرفين لي صديقات ؟ ومن أين آخذ المال ؟ انني لا أدري إن كان بامكاني بعدُ أن أحتفظ بمنزلي في « فوفرول » ، إن صيانته تكلف غالياً جداً .

– استقلي سيارتك ، إهبطي إلى ايطاليا ، غيّري أفكارك .

– لا ! لا ! لن أخضع . بل سأعمل شيئاً ما .

واستردّ وجه دومينيك قسوته حتى أحسّت لورانس بخوف غامض .

– ماذا ؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي ؟

– سأنتقم على كل حال .

– وكيف ذلك ؟

فتردّدت دومينيك ؛ وشوّه فمها نوعٌ من الابتسام :

– إنني على ثقة من أنهم قد أخفوا على الصغيرة مضاجعات أمّها مع جيلبير . سأخبرها ذلك . وسأخبرها أيضاً كيف كان يتحدث عن لوسيل : ثدياها الى ركبتيها ، وكل الباقي ...

– إنك لن تفعلي ذلك ! سيكون هذا جنوناً . انك لن تذهبي للقائها .

– لا . ولكنّ بامكاني أن أكتب لها .

– انك لست جادّة فيما تقولين ؟

– ولِمَ لا أكون جادّة ؟

– سيكون ذلك داعياً الى الاشمئزاز !

– وما يفعلونه لي ، ألا يدعو للاشمئزاز ؟ الأناقة ، اللعبة الرياضية ، أي كلام فارغ ! إنه لا يحقّ لهم أن يجعلوني أتألم : ولن أردّ لهم شرّهم خيراً .

لم يسبق للورانس أن حكمت قطّ على دومينيك . انها لا تحكم على أحد ؛ ولكنها مع ذلك كانت ترتجف . ما أشدّ السواد في ذلك القلب ، حتى لكأنّ أفاعي تتلوّى فيه . كان ينبغي الحيلولة دون ذلك ، بأي ثمن .

– لن تبلغي من ذلك شيئاً ؛ بل ستنحطّين في أعينهم ، وسيُقام العرس على

أي حال .

قالت دومينيك :

- هذا ما أشكُّ فيه .

وفكّرت ، وحسبت :

- إن باتريسيا بلهاء . إنها من نوع لوسيل : إنّ لنا عشّاقاً ، ولكنّ ابنتنا لا تعلم من ذلك شيئاً ، إن ابنتنا بكر عذراء ، إنها تستحق زهرتها البرتقالية ..

كانت لورانس مشدوهة بتبذُّل دومينيك الفجائي . لم يسبق لدومينيك قط أن كان لها مثل هذا الصوت ، وهذه اللغة ؛ إن امرأة اخرى هي التي تتكلم ، وليست هي دومينيك .

- وإذن ، فحين تعرف طفلة ماري الحقيقة ، أعتقد انها ستصاب بصدمة طريفة .

- انها لم تؤذك ، ليست هي التي آذتك .

- بل هي أيضاً .

وأضافت دومينيك بلهجة عدائية :

- لماذا تدافعين عنها ؟

- بل أدافع عنك ضد نفسك . اسمعي ، لقد كنت تقولين دائماً إن على المرء أن يعرف كيف يتلقى الضربات القاسية ؛ لقد كنت شديدة الحنق على جان تكسييه .

- ولكنني لا أنتحر : بل أنتقم .

ما ينبغي أن تقول ، أية حجّة تلتمس ؟

- سيقولون انك تكذبين .

- لن تحدّثها بشيء : ستحقد عليها حقداً أشدّ من أن يُحتمل معه الكلام.

- افرضي انها تحدّثت اليها . سوف يروياك في كل مكان انك كتبت هذه الرسائل .

- لا . إنهم لن يغسلوا ثيابهم القذرة أمام الناس .

– سيقولون انك كتبت رسائل قذرة ، من غير أن يوضّحوا .

– حينذاك ، أنا التي سأوضّح .

– أتتصوّرين ما سيكون رأيهم فيك ؟

– أنني لا أدع الناس يسيرون على قدميّ . انني على أي حال امرأة مهجورة ؛ امرأة عجوز مهجورة من أجل فتاة صبية . وأنا أفضل أن اثير الكراهية على أن أثير السخرية .

– أبتهل اليكِ ...

قالت دومينيك :

– آه ! انك تتعبينني . حسناً . لن أفعل ذلك . وماذا بعدُ ؟

ومن جديد ، تحلل وجهها ، وانفجرت باكية :

– إن الحظ لم يواتني قطّ . لقد كان أبوك عاجزاً . نعم ، عاجز . وحين التقيت أخيراً رجلاً ، رجلاً حقيقياً ، هجرني الى بلهاء ذات عشرين عاماً .

– أتريدين ان أبقى عندك هذه الليلة ؟

– لا . أعطيني أقراصي . سأزيد الكمية قليلاً ، وسأنام . إنني مرهقة .

قدح ماء ، قرص أخضر ، حبّتان صغيرتان بيضاوان . وتناولتها دومينيك :

– تستطيعين أن تتركيني الآن .

وقبّلتها لورانس وأغلقت خلفها الباب الخارجي . وأخذت تقود سيارتها على مهل . هل ترى دومينيك ستكتب هذه الرسالة أم لا ؟ وكيف تحول دونها ودون ذلك ؟ هل تخبر جيلبير ؟ سيكون ذلك خيانة . وهو لا يستطيع أن يراقب بريد باتريسيا . أم هل تأخذ أمّها فوراً ، منذ الغد ، في رحلة ؟ إنها سترفض ذلك . فما العمل ؟ أيّ اضطراب يستولي عليها ما أن يُطرح هذا السؤال ! إنني لم أقرّر شيئاً بنفسي على الإطلاق : حتى ولا زواجي ؛ ولا عملي ؛ ولا قصتي مع لوسيان : لقد تشكلت وانحلت بالرغم مني . كل ما هنالك أن الأشياء تحدث لي . ما العمل ؟ هل أستشير جان – شارل في ذلك ؟

قالت :

— اوه ! يا الهي ! ليتك تعرف في أية حال هي دومينيك ! لقد قال لها جيلبير كل شيء .

ووضع كتابه بعد أن دسّ ورقة بين صفحاته .

— كان هذا متوقّعاً .

— بل كنت آمل أن تصمد خيراً من ذلك . لقد قالت لي منذ شهر كثيراً من الشرّ عن جيلبير !

— إنّ في الأمر كثيراً من الأشياء . فلو أنه كان يقتصر على المال ، لكان عليها أن تغيّر مجرى حياتها .

وتصلّبت لورانس . صحيح أن جان – شارل يكره العواطف المؤثرة ؛ ولكن مع ذلك اية لامبالاة كانت في صوته !

— إن دومينيك لا تحبّ جيلبير لماله .

— ولكنه يملك المال ، ولهذا حسابه .

وأضاف بصوت عدائي :

— بل تأكدي إن لهذا حسابه بالنسبة للجميع .

فلم تجب واتجهت نحو غرفتها . إنه بلا ريب لم يهضم الثمانمئة الف فرنك التي كلفه إياها حادث السيارة . وهو يعتبرني المسؤولة عن ذلك ! ونزعت ثيابها بحركات مفاجئة . وكان الغضب يستولي عليها . إنني لا أريد أن أغضب ، بل يجب أن أنام جيداً . قدح ماء . حركات رياضية ، دوش بارد . لم يكن بوسعي طبعاً أن أعتمد على نصيحة من جان – شارل : عدم التدخّل في شؤون الآخرين ، إطلاقاً . كان باستطاعة شخص واحد أن يساعد لورانس : أبوها ؛ ومع ذلك فانها لا تريد أن تثير شفقته على خيبات دومينيك ، بالرغم من تفهّمه وسماحة صدره . وللمرة الاولى تناولت قرصاً منوّماً قبل أن تلجأ الى السرير . لقد تعرّضت منذ يوم الأحد الى الانفعالات أكثر مما ينبغي : إن كل شيء يحدث دائماً في وقت واحد .

وخشية من أن توقظ لورانس أمّها ، امتنعت عن مخابرتها حتى ساعة الذهاب

الى المكتب . وسألتها :

– كيف حالك ؟ هل نمت ؟

– بصورة رائعة حتى الرابعة صباحاً .

وكان في صوت دومينيك ما يشبه التحدّي الفـَرِح .

– حتى الرابعة فقط ؟

– نعم . لقد استيقظت في الرابعة .

وسادت لحظة صمت ، ثم قذفت دومينيك قولها بلهجة منتصرة :

– لقد كتبت لباتريسيا .

– لا ! أوه ، لا !

وأخذ قلب لورانس يخفق بعنف :

– إنك لم تُرسلي الرسالة ؟

– بلى ، بالبريد المستعجل ، في الساعة الخامسة . ويسليني تسليةً جنونية ان أتصوّر هيئتها ، الفتاة اللطيفة !

– دومينيك ! إن هذا جنون ! يجب ألاّ تقرأ هذه الرسالة . خابريها تلفونياً : ابتهلي اليها ألاّ تقرأ رسالتك !

– تتصوّرين أن أتلفن لها ! لقد فات الأوان على كل حال ، وقد قرأتها .

وصمتت لورانس . وأعادت السماعة ، واتجهت تواً الى الحمّام : كان تشنجٌ يمزّق معدتها ، فقاءت الشاي كله الذي كانت قد شربته ؛ ولم يحدث لها ذلك منذ عدة سنوات ، ان تقيء من فرط الانفعال . وبالرغم من خلوّ معدتها ، ظلّت التشنجات تلويها . لم يكن لها خيال ، فهي لا تتمثل باتريسيا ولا لوسيل ولا جيلبير ، ولا أي شيء . ولكنها كانت خائفة . خوفاً مرعباً . وشربت قدح ماء ، وعادت تنهار على ديوان .

وسألتها كاترين :

– هل أنت متعبة يا ماما ؟

– قليلا . ولكن لا بأس عليّ . إذهبي فاكتبي فروضك .

– انت متعبة أم حزينة ؟ أبسبب صحّة جدّتي ؟

– لماذا تسألين ذلك ؟

– لقد قلت لي منذ حين إنها تتحسّن ، ولكن لم يكن يبدو عليك انك تصدّقين ذلك .

ورفعت كاترين نحو أمّها وجهاً قلقاً ولكنه واثق . فأمرّت لورانس ذراعها حول قامتها وضمّتها اليها .

– إنها ليست مريضة حقاً . ولكن كان المفروض أن تتزوج مع جيلبير ، وهو لا يحبّها بعد ، وسيتزوج مع امرأة أخرى . فهي لذلك شقيّة .

– آه !

وفكرت كاترين :

– ماذا نستطيع أن نفعل ؟

– أن نكون لطفاء معها . ليس أكثر .

– ماما ، هل ستصبح جدّتي شرّيرة ؟

– ولماذا ؟

– إن بريجيت تقول إن الناس انما يكونون أشراراً لأنهم أشقياء . ما عدا النازيين .

– قالت لك هذا ؟

وضمّت لورانس كاترين ضمّاً أشدّ :

– لا . لن تصبح جدّتك شريرة . ولكن كوني حذرة حين ترينها : لا يَبدُ عليك أنك تعرفين انها حزينة .

قالت كاترين :

– إنني لا أريدك أن تكوني أنت حزينة .

– انني أنا سعيدة لأنّ لي طفلة لطيفة جداً . إذهبي فأنجزي فروضك ولا

تحدّثي لويز في شيء من هذا : فهي أصغر من أن تستوعبه . أتعدينني بذلك ؟
قالت كاترين :
– أعِدُك .

واختطفت قبلة من خدّ أمّها وابتعدت وهي تبتسم . طفلة على غاية الرقة والإخلاص . أمن المحتم أن تصبح امرأة مثلي ، على صدرها أحجار ، وفي رأسها دخانٌ من كبريت ؟

قالت لورانس لنفسها فيما كانت تتناقش مع مونا ولوسيان في مكتب « بوبلانف » حول إطلاق منتوج لينون « فلوريبيل » : « لا نفكّرْ في هذا بعد ، لا أريد أن أفكر في هذا » . الساعة الحادية عشرة والنصف ، لا بدّ أن باتريسيا قد تلقّت الرسالة المستعجلة منذ الثامنة صباحاً .

قال لوسيان :
– هل تسمعين ما أقوله لك ؟
– طبعاً .

إنه متصلّب في حقده ، عدائيّ ، وهي تؤثر ألاّ تراه بعدُ أبداً اذا ظلّ كذلك ، ولكن « فوازان » يرفض أن يتركه . براءة اللينون ، براءة مزيّفة ؛ شفافية : صفاء الينابيع ، ولكن أيضاً قلة رصانة نذلة . ويجب استغلال هذه المتناقضات .

وانتفضت لورانس لجرس التلفون . إنه جيلبير :
– أنصحك بأن تذهبي على الفور لرؤية أمك .

صوت قاطع ، خبيث ؛ وأعاد سماعة التلفون . وطلبت لورانس رقم أمّها . إنها تكره هذه الآلة التي تجعل الناس قريبين الى هذا الحدّ ، بعيدين الى هذا الحدّ ، « كاساندر » هذه التي يحطم نداؤها الثاقب الأيام وينذر بالمآسي . وهناك كان رنين الجرس يرتعش في الصمت : فكأنّ المنزل كان خالياً . ولكن

عبارة جيلبير كانت توحي بان دومينيك لا بدّ أن تكون في البيت . فماذا يعني شخصٌ في منزل فارغ ؟ ميت .

– لقد حصل لأمي حادث . إصابة ، لا أدري ماذا ... فأنا منطلقة اليها .

ولا بدّ أن هيئتها كانت غريبة ، ولم يقل لوسيان ولا مونا شيئاً .

وركضت ، فاستقلّت سيارتها وقادتها أسرع ما تستطيع ؛ وترّجلت من السيارة التي تركتها في مكان ممنوع ، ورقيت الدرج أربع أربع ، من غير أن تملك الصبر على إنزال المصعد . ورنّت ثلاث مرات رنّتين . صمت . وتركت إصبعها مستمّراً على الزرّ .

– مَنْ هناك ؟

– لورانس .

وانفتح الباب . ولكن دومينيك أولتها ظهرها ؛ وكانت ترتدي ثوبها الأزرق ، ودخلت غرفتها التي كانت ستائرها مُسدلة . وكان يُلاحظ في العتمة إناء مقلوب وزهور خزامى منتثرة وبقعة من الماء على السجادة . وارتمت دومينيك على كرسيّ : كما حدث ذلك اليوم ، مقلوبة الرأس الى خلف ، وعيناها إلى السقف ، وغصّات تنفخ عنقها ذا العروق المتصلبة . وكانت مقدّمة الثوب ممزّقة وأزراره منتزعة :

– لقد صفعني .

واتجهت لورانس الى الحمّام ، ففتحت خزانة الأدوية .

– إنك لم تأخذي حبوباً مهدّئة ؟ أليس كذلك ؟ إذن خذي هذه الحبوب .

فأطاعت دومينيك . وأخذت تتكلم بصوت لا ينتمي الى أحد . لقد دقّ جيلبير بابها في الساعة العاشرة ، وحسبت أنه البوّاب ففتحت الباب . لقد أتت باتريسيا على الفور ترتمي بين ذراعي جيلبير باكية ، وكانت لوسيل تصرخ ، فأغلق الباب خلفه بضربة قدم ، وجعل يلامس شعر باتريسيا بحنان ، وبصوت مهدّيء ؛ وهنا في المدخل أهانها وصفعها وأخذها من تلابيبها وجرّها إلى غرفتها . واختنق صوت دومينيك وجرضت بريقها :

- ليس أمامي بعد إلا الموت .

ما الذي حدث بالضبط ؟ كان رأس لورانس يحترق . إنها تتمثل جيلبير في فوضى السرير والثوب الممزق والأزهار المقلوبة ، بيديـه الضخمتين الأنيقتين ، وعلى وجهه السمين ذلك الخبث . هل جرؤ ؟ وما الذي كان يمكنه أن يمنعه ؟ واستولى الاشمئزاز على حلق لورانس ، الإشمئزاز مما حدث لدومينيك في تلـك اللحظات القليلة ، ومـا يحدث الآن . آه ! لقد تطايرت جميع الصور شعاعـاً ، ولا سبيل بعدُ الى إصلاحها . وإن لورانس تودُّ أن تتناول هي أيضاً حبوبـاً مهدّئة ، ولكن لا ، فهي بحاجة الى صفاء ذهنها كله . وقالت :

- أيّ وحش ! إنهم وحوش .

وتمتمت دومينيك :

- أريد أن أموت .

فقالت لورانس :

- كفى ! لا تبقيْ هكـذا تبكين ، فهذا هو مـا يسرّه كثيراً . إغسلي وجهك ، وخذي دوشاً ، وارتدي ثيابك ولنخرج من هنا .

لقد فهم جيلبير انـه لم يكن ثمة إلا طريقة واحدة لإصابـة دومينيك في الصميم : هي إذلالها . أتراها ستشفى من ذلك ؟ كم كان يكون الأمر يسيراً لو استطاعت لورانس أن تأخذها بين ذراعيها ، وتلامس شعرها ، كما تفعل مـع كاترين . إن ما يمزّقها انما هو هذا النفور الذي يمتزج بشفقتها : كما لو انهـا كانت تشفق على حرذون مجروح ، من غير أن تعزم على لمسه . انها مشمئزة من جيلبير ، ولكن من أمها أيضاً .

- إنه في هذه اللحظة بالذات يروي كل شيء لباتريسيا ولوسيل .

- ولكن لا . ليس هنـاك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز في ايـذاء امرأة بوحشية .

- إنه فخور بذلك : وهو سيُدلّ بهذا في كل مكان . انني أعرفه ...

- لن يستطيع أن يقدّم مبرراته . لقد أوضحتِ لي هـذا بنفسك أمس :

فهو لن يذهب يصيح في كل مكان انه ضاجع أمّ خطيبته !

— يا للقذرة الصغيرة ! لقد أرتهُ رسالتي !

ونظرت لورانس الى أمّها في ذهول :

— ولكنني قلت لك يا دومينيك انه ستريه إياها !

— لم أكن اصدق ذلك . كنت أعتقد انهـــا ستكون مشمئزة وانها ستقطع صلتها به . وهذا ما كان ينبغي أن تفعله ، احترامـاً لأمّها : أن تصمت وتقطع العلاقة . ولكنها تريد فلوس جيلبير .

طوال أعوام عاملت الناس على أنهم عقبات ينبغي مقاومتها ، وقد انتصرت في ذلك ؛ وانتهى بها الأمر الى أن تجهل أن الآخرين موجودون لحسابهم ، وانهم لا يطيعون بالضرورة خططها . عنيدة بجنونها وتمثيلياتها . مقلدة دائماً شخصاً ما لأنها لا تحسن اصطناع تصرّفات تتلاءم والظروف. إنهم يعتبرونها امرأة عنيدة، مالكة زمام أمرها ، فعّالة ...

وردّدت لورانس :

— أرتدي ثيابك . ضعي نظارتك السوداء وسآخذك لنتناول الغـــداء في مكان ما ، في ضواحي باريس ، حيث نكون واثقتين من اننا لن نلتقي أحداً

— لست جائعة .

— سيعود عليك الطعام بالفائدة .

وذهبت دومينيك الى الحمّام . لقد فعل المهدّيء فعـله . وقامت بزينتها في صمت . أما لورانس ، فقد القت الزهور ، ومسحت المـاء . وتلفنت للمكتب . وأصعدت أمّها الى السيارة . وظلت دومينيك صامتة. وكانت النظارة الكبيرة السوداء تبرز صفرة بشرتها .

واختارت لورانس مطعماً يتكوّن كله من الواجهـات الزجاجية ويقوم على مرتفع يشرف على منظر واسع من الضاحية . وكان في داخل القاعـــة وليمة . مكان مرتفع الثمن ، ولكنه ليس أنيقاً ، ولم يكن معارف دومينيك يتردّدون عليه . واختارتا طاولة ، وقالت دومينيك :

– يجب أن أخطر سكرتيرتي انني لن أجيء اليوم .

وابتعدت وكتفاها مقوّستان بعض الشيء . وخرجت لورانس الى السطيحة التي تشرف على السهل . في البعيد ، كان يبرز بياض كنيسة « القلب المقدس » ، وكان قرميد سطوح باريس يلتمع تحت سماء كثيفة الزرقة . إنه واحدٌ من هذه الأيام التي ينفذ فيها جذل الربيع من برودة ديسمبر . وكانت ثمة عصافير تغرّد على الغصون العارية . وعلى الاوتوستراد ، في الجانب الأسفل ، كانت السيارات تجري ، ملتمعة . وتجمّدت لورانس ؛ لقد توقف الزمن فجأة . كان ثمة في هذا المنظر المدبّر ، بطرقه وبيوته المتشابهة ، وأراضيه المتناسقة وسياراته المسرعة ، شيءٌ ما يشفّ اذا التقاه المرء انفعل انفعالاً شديداً ينسى معه الهموم والدسائس وكل شيء ، فاذا هو انتظارٌ لا بدء له ولا نهاية . وكان الطير يغنّي ، غير مرئيّ ، مبشراً بالتجدُّد البعيد . وكان ثمة لون ورديّ ينسحب في الأفق ، وقد ظلت لورانس لحظة طويلة مشلولة بهذا الانفعال العجيب . ثم ألفت نفسها من جديد على سطيحة مطعم ، تحسّ البرد ، فعادت الى طاولتها .

وجلست دومينيك الى جانبها ، فمدّت لها لورانس لائحة الطعام .

– ليست لديّ رغبة بشيء .

– اختاري مع ذلك شيئاً .

– اختاري لي .

وارتعش فم دومينيك ، وكان الارهاق بادياً عليها . وقالت بصوت ذليل :

– لا تحدّثي في هذا أحداً . انني لا أريد أن تعرف مارت هذا . ولا جان – شارل . ولا أبوك .

– طبعاً لا .

وجرضت لورانس بريقها ، وأحسّت باندفاع نحو أمّها ؛ انها تتمنى أن تساعدها . ولكن كيف ؟

– ليتك تعرفين ما قاله لي . إنه فظيع . إنه رجلٌ فظيع .

وكانت دمعتان تسيلان وراء النظارة السوداء .

- لا تفكّري به بعد ، امتنعي عن التفكير به .
- لا أستطيع .
- سافري . اتخذي لك عشيقاً . ولينته الماضي .
وطلبت لورانس عجّة وسمكاً وخمراً أبيض. وكانت تعلم ان أمامها ساعات وساعات من الكلام المكرّر اللامجدي . واستسلمت لذلك . ولكن كان لا بدّ لها من أن تترك دومينيك في آخر المطاف . وإذ ذاك ؟
وارتسم على وجه دومينيك ما يشبه الكدر الخفيّ ، ثم قالت :
- أعتقد على أي حال أنني سأفسد عليها قليلاً ليلة العرس ...

قال جان - شارل :
- أودّ أن أجد هدية مدهشة لدوفرين وزوجته .
- يجب أن تبحث عنها في حيّ بابا .
وكان لجان - شارل ميزانية خاصة للهدايا والتعويضات وتكاليف السهرات والاستقبالات والأشياء اللامنتظرة ، وكان يراعيها باهتمام مماثل للميزانيات الأخرى تنظيماً . حين سيقومون بمشترياتهم بعد ظهر هذا اليوم ، ستكون النفقات قد حُدّدت بفرق بضعة آلاف من الفرنكات فقط . عملٌ دقيق. ينبغي ألاّ يبدو بمظهر التقتير ، ولا بمظهر الإسراف ؛ ولا ينبغي للهدية أن تعكس هذا الهمّ من الاعتدال ، وانما فقط همّ أن تروق للمهداة اليه . وألقت لورانس نظرة على الأرقام التي يسجلها زوجها :
- خمسة آلاف فرنك لغويا ، هذا ليس بالكثير .
- إنها لا تخدم عندنا إلاّ منذ ثلاثة أشهر . ولن نعطيها كما لو انها اشتغلت طوال العام .
فصمتت لورانس. ستأخذ عشرة آلاف فرنك من صندوقها الخاص ؛ إن من المناسب أن تكون لأحدنا مهنة نأخذ منها مكافآت بالخفية من رفيق الحياة . هذا ما يجنّبنا المناقشات . وقد كان من اللامجدي إزعاج جان - شارل : فان

دفتر علامات كاترين لن يرضيه . ومع ذلك فيجب أن تقرّر إطلاعه عليه .

– لقد حملت الطفلتان أمس دفتري علاماتهما .

ومدّت له دفـــتر لويز . الأولى ، الثالثة ، الثانية . وطالعه جان – شارل بعينيه في لامبالاة .

– إن دفتر كاترين أقلّ نجاحاً .

ونظر وقطّب : الثانيـة عشرة بالفرنسية ، التاسعة باللاتينية ، الثامنـة بالرياضيات ، الخامسة عشرة بالتاريخ ، الثالثة بالانكليزية .

– الثانية عشرة بالفرنسية ! لقد كانت دائماً الأولى ! فماذا دهاها ؟

– انها لا تحبُّ استاذها .

– والخامسة عشرة بالتاريخ ، والتاسعة باللاتينية !

لم تكن التعليقات تسوّي شيئاً . « تستطيع أن تكون أحسن من ذلـك . ثرثارة في الصفّ . شاردة . » شاردة : هل ورثت ذلك مني ؟

– هل ذهبت لمقابلة أساتذتها ؟

– رأيت معلمة التاريخ ؛ يبدو على كاترين التعب ، وكأنّهـا في القمر ، أو هي على العكس تنفعل كثيراً وتتباله . غالباً ما تجتاز الطفلات في هـذه السنّ أزمة ، هكذا قالت لي ؛ هذا بسبب اقتراب سنّ البلوغ ، فلا مجال للقلق أكثر مما ينبغي .

– تبدو لي أزمة خطيرة . انها لا تدرس ، وهي تصرخ في الليل .

– لقد صرخت مرتين .

– مرتين أكثر مما ينبغي . استدعيها ، أودُّ أن أكلمها .

– لا توّبخها . إن علاماتها على كل حال ليست كارثة .

– انك تكتفين بالقليل !

في غرفة الأطفال ، كانت كاترين تساعد لويز في الرسم بالألوان . إنهـا ذات لطف مؤثر مع أختها ، منذ أن بكت الصغرى غيرةً . وفكرت لورانس : لا فائدة ، فان لويز جميلة ، ولطيفة وذكية ، ولكني إنما أفضّل كاترين . ما سبب

انحرافها في الدرس ؟ إن للورانس أفكارها هنا ، ولكنها عازمة على أن تحتفظ بها لنفسها .

– يا حبيبتي ، إن بابا يريد رؤيتك . إنه قلق بسبب علاماتك .

فتبعتها كاترين في صمت ، مطرقة بعض الشيء . ونظر اليهـا جان – شارل نظرة قاسية :

– اسمعي يا كاترين : إشرحي لي ما يحدث لك . لقد كنت في العـام الماضي بين الاوليات الثلاث .

ووضع دفتر العلامات تحت نظرها :

– إنك لا تدرسين .

– بلى .

– الثانية عشرة ، الخامسة عشرة .

ورفعت نحو أبيها وجهاً مندهشاً :

– وماذا يعني ذلك ؟

– لا تكوني رقحة !

وتدخلت لورانس بصوت مرح :

– اذا كنت تريدين أن تصبحي طبيبة ، فيجب أن تدرسي كثيراً .

– آه ، سوف أدرس ؛ إن ذلك يهمّني . أما الآن ، فهم لا يحدثونني أبداً عن أشياء تهمّني .

فقال جان – شارل بصوت حانق :

– التاريخ ، الأدب ... هذا لا يهمّك ؟

إنه يريد ، حين يناقش، أن يكون على حقّ أكثر مما يريد أن يفهم مخاطبه، وإلاّ فإنه يسأل: ما الذي يهمّك إذن؟ ولو فعل لما استطاعت كاترين أن تجيب؛ ولكن لورانس تعرف : إنه هذا العالم حولها ، هذا العالم الذي يخفونه عليهـا ولكنها تلمحه .

– أهي صديقتك بريجيت التي تجعلك تثرثرين في الصف ؟

– أوه ! بريجيت ، إنها طالبة ممتازة .

وانتعش صوت كاترين :

– إن لهـا علامات سيئة بالفرنسية لأن المعلمة بلهاء ، ولكنها كانت الأولى باللاتينية والثالثة بالتاريخ .

– يجب أن تحتذي حذوها. إنه يشقّ عليّ أن تصبح ابنتي الصغيرة كسولة.

والتمعت الدموع في عيني كاترين ، فلامست لورانس شعرها :

– ستدرس خيراً من الآن في الأشهر الثلاثة القادمة. إنها الآن تريد الاستفادة من العطلة ونسيان المدرسة . إذهبي ، يا حبيبتي ، فالعبي مع لويز .

وخرجت كاترين من الغرفة ، فقال جان – شارل بصوت غاضب :

– إذا كنت تدلّلينها حين أوبّخها ، فلا جدوى من أن أهتمّ بها .

– إنها شديدة الحساسية .

– حسّاسة أكثر مما ينبغي . ماذا يجري لها ؟ إنهـــا تبكي ، وتطرح أسئلة ليست من سنّها ولا تعمل بعد .

– كنت تقول أنت نفسك إنها في سنّ طرح الأسئلة .

– فليكن . ولكن هذا التقهقر المدرسي غــير طبيعي . إنني أتساءل إذا كان من الخير لها أن تكون لها صديقة أكبر منها سناً ، وفوق ذلك يهودية .

– ماذا تقول ؟

– لا تظني اني مناهض للسامية . ولكن من المعروف أن الأطفـــال اليهود ذوو نضج مبكـّر مُقلق بعض الشيء وذوو حساسية متطرّفة .

– آه ! تلك شائعات لا أصدّقها على الإطـلاق . إن بريجيت مبكرة النضج لأن عليها أن تتدبّر أمرها وحدها لعدم وجود الأمّ ، ولأن لها أخاً كبيراً هي معه في صميمية كبيرة ؛ وأنا أجد ان لهـا تأثيراً ممتازاً على كاترين ؛ إن الصغيرة تنضج وتفكـّر ، وتفتني . وأنت تعلـّق أكثر ممـا ينبغي من الأهمية على النجاح المدرسي . .

– أريد أن تنجح ابنتي في الحياة . فلماذا لا تأخذينها الى عالم نفسي ؟

– آه ! كلا ! تصوّر أنّ على الناس أن يذهبوا لاستشارة عالم نفسي كلما فقد طفل بعض الدرجات في الصفّ !

– إنها تفقد درجات في الصف وتصرخ وهي نائمة . لِمَ لا ؟ لماذا ترفضين رؤية اختصاصي في حالة الاضطرابات الشعورية بينما تأخذين ابنتيك الى الطبيب بمجرّد أن تُصابا بالسعال ؟

– إنني لا أحب أبداً هذه الفكرة .

– هذا كلاسيكي . إن الأهل هم تلقائياً يغارون من علماء النفس الذين يهتمّون بأطفالهم . ولكننا من الذكاء بحيث نستطيع أن نتجاوز هذا الموقف إنك غريبة . فأنت عصرية من بعض الجوانب ، وأنت من جوانب أخرى رجعية ، بكل صراحة ...

– رجعية أم لا ، فأنا أجد كاترين ممتازة كما هي؛ ولا أريد أن يُفسدوها لي .

– إن عالم النفس لا يفسدها لك . كل ما سيحاوله هو أن يرى ما الذي ليس فيها غير طبيعي .

– غير طبيعي : ماذا يعني هذا ؟ أنا أرى ان الامور ليست طبيعية دائماً لدى الذين تحكم بأنهم طبيعيون . واذا كانت كاترين مهتمّة بشيء آخر غير دروسها ، فهذا لا يعني أن تفكيرها غير طبيعي .

وقد تكلمت لورانس بلهجة عنيفة أدهشتها هي نفسها . كان عليها أن تتبع رَجُلَها في طريقه ، لا تنحرف قيد أنملة ، وكان ممنوعاً عليها النظر ذات اليمين أو اليسار ، وإن لكل سنّ مهماته ، واذا استولى عليك الغضب فتناولي قدح ماء وقومي بحركات رياضية . لقد نجح هذا معي ، نجح تماماً ؛ ولكنهم لن يجبروني على تربية كاترين بالطريقة نفسها . وقالت في قوة :

– انني لن أمنع كاترين من قراءة الكتب التي تروق لها ولا أن ترى الرفاق الذين تحبّهم .

– اعترفي بأنها فقدت كثيراً من توازنها . لقد كان أبوك على حق ، هذه المرة : إن الإعلام شيء رائع ، ولكنه خطرٌ على الأطفال . لا بدّ من اتخاذ

الحيطة ، وربما يجب تجنيبها بعض التأثيرات . إنــه غير مُجدٍ أن تتعلم على الفور أحزان الحياة . سيحين الوقت لذلك فيما بعد .

– تعتقد ذلك ! لن يحين الوقت أبداً ، ولا يأتي شيء في إبّانه .

واستطردت لورانس :

– لقد كانت مونا على حق أن تقول إننا لا نفهم شيئاً . اننا نقرأ كل يوم في الصحف أشياء فظيعة ، ونحن نظلُ نجهلها .

قال جان – شارل في جفاء :

– لا تعودي الى أزمة الضمير التي عانيتها عام ٦٢ .

فأحست لورانس انها تمتقع : فكأنما صفعها . كانت ترتعش ، ولقــد كانت غاضبة غضباً جنونياً يوم قرأت قصة تلك المرأة التي عُذّبت حتى الموت . وقــد ضمّها جان – شارل اليه ، فاستسلمت لذراعيه بثقة وهو يقول : «هذا فظيـع» وظنت يومذاك أنه كان منفعلاً مثلها هو أيضاً . وقد استردّت هدوءها بسببه ، وبذلت جهداً لتطرد هذه الذكرى ، فنجحت في ذلك تقريباً . وبسبب منـــه إجمالاً تجنّبت بعد ذلـك قراءة الصحف . والواقع ان تلك القصة كانت لا تثير اكتراثه ، وانما كان يقول : « هذا فظيـع » ليهدّئها : وها هو الآن يقذف وجهها بالحادث في شيء من الشراسة . أية خيانة ! انه واثق بحقه ، يغضب اذا أزعجنا الصورة التي يتصوّرنا بها فتاة صغيرةً وامرأةً صبيةً نموذجيتين، غير مكترث بما نحن عليه حقاً .

– لا أريد أن تَرِث كاترين ضميرك المطمئنّ !

وضرب جان – شارل الطاولة بشدّة ؛ إنه لم يحتمل قطّ أن يُعانَد .

– إنك أنت التي تطاردينها بوساوسك وشدة حساسيتك .

– أنا ؟ شدة حساسيّة ؟

كانت مندهشة بصراحة . كانت لديهـــا حساسية ، ولكن دومينيك ، ثم جان – شارل خنقاها تماماً . وإن مونا تأخذ عليها لامبالاتها ، ويأخذ عليهـــا لوسيان انها لا تملك قلباً .

– نعم ، مثال ذلك راكب الدراجة ذاك ، منذ حين ...

قالت لورانس :

– إذهب عني ، أو أذهب أنا .

فقال جان – شارل وهو ينهض :

– بل أنا : عـــليّ أن امرّ بمؤسسة « مونود » ، ولكنك لن تسيئي صنعاً برؤية طبيب نفساني من أجلك أنت .

واختلت بنفسها في غرفتها . يجب أن تتناول قدح ماء ، وأن تقوم بحركات رياضية : ولكن لا . بل لقد استسلمت هذه المرة لغضبها ؛ وانطلقت عاصفة في صدرها فهزّت جميع خلاياها ، فاذا هو ألمّ جسدي ، وإن كان يشعرها بأنهـــا تعيش. وتمثلت نفسها جالسةً على حافة السرير وهي تسمع صوت جان ـ شارل: « انني لا أجد هذا عملاً ذكياً ؛ فليس لنا إلاّ تأمين ضد الغير ... وجميع الناس كانوا سيشهدون لصالحك . » وتحققت كلمع البرق انه لم يكن يمزح . كان يأخذ عليّ ، وما زال يأخذ عليّ أني لم أوّفر عليه ثمانمئة الف فرنك بأن أجازف بقتل انسان . وأغلق باب الخروج ، لقد ذهب . أكان سيفعل ذلك لو كان بدلاً مني؟ إنه على أيّ حال يأخذ عليّ اني لم أفعله .

وظلت وقتاً طويلاً جالسة ، والدم يغلي في رأسها ، مثقلة الرقبة ؛ وكان بودّها أن تبكي ؛ منذ متى نسيت أن تبكي ؟

وكانت اسطوانة تدور في غرفة الطفلتين : أغانٍ انكليزيـة قديمة ، وكانت لويز ترسم بالألوان ، بينما كانت كاترين تقرأ « رسائل طاحونتي » . وقـد رفعت رأسها :

– ماما ، كان بابا غاضباً جداً .

– إنه لا يفهم لماذا تدرسين أقل من قبل .

– وأنت غاضبة كذلك .

– لا . ولكني أريد أن تبذلي جهداً إضافياً .

– إن بابا يغضب غالباً في هذه الأيام .

وصحيح انه كان ثمة منازعات مع فرنيي ، ثم الحادث : لقد غضب حين أرادت الصغيرتان أن يرويه لهما . وقد لاحظت كاترين مزاجه السيء ، وهي تشعر شعوراً غامضاً بعصبية دومينيك ، وبقلق لورانس . أيكون ذلك هو سبب ما تعانيه من كوابيس ؟ الواقع انها صرخت ثلاث مرات .

– إن سيه هموماً ، فعليه أن يستبدل السيارة ، وهذا ما يكلف غالياً . ثم إنه مسرورٌ أن قد غيَّر وضعه في العمل ، ولكن ذلك يطرح مشكلات .

فقالت كاترين بلهجة اقتناع :

– من المحزن أن يكون الانسان شخصاً كبيراً في السنّ .

– ولكن لا ، إن هناك ألواناً من السعادة الكبيرة، مثلاً أن يكون للانسان طفلتان لطيفتان مثلكما .

– إن بابا لا يجدني لطيفة .

– بلى بكل تأكيد . ولو لم يكن يحبّك كثيراً ، لكان عنده سيّان أن تكون علاماتك جيدة أم رديئة .

– أتعتقدين ذلك ؟

– طبعاً .

أيكون جان – شارل على حق ؟ أتراها قد ورثت مني هذا الطبع القلق ؟ إنه لمخيف أن نفكر بأننا نطبع أولادنا لا بشيء إلا بما نحن عليه . لسان نار عبر القلب . قلق ، تبكيت . إن الأمزجة اليومية ، ومصادفات كلمة ، أو صمت ، جميع هذه العَرَضيات التي ينبغي أن تمحّي من خلفي ، إنما تترك طابعها في هذه الطفلة التي تجترُّ والتي سوف تتذكـّر ، كما أتذكر ثنيات صوت دومينيك وانعطافاته . اننا لا نستطيع أن نتحمل مسؤولية كل ما نفعله أو لا نفعله . « ماذا تفعلين من أجلهم ؟ » هذه الحسابات المطلوبة فجأة في عالم لا حساب فيه لشيء تقريباً . فكأن ذلك سوء استعمال .

وسألت لويز :

– ماما ، هل تأخذيننا لمشاهدة المزود ؟

– نعم ؛ غداً أو بعد غد .

– هل نستطيع الذهـــاب إلى قداس منتصف الليـل ؟ إن بيارو وريكاه يقولان إن ذلك جميل جداً ، مع الموسيقى والأنوار .

– سنرى .

ما أكثرها الأساطير السهلة التي تهدّيء الأطفال : جنات « فرا انجليكو » ؛ الأيام القادمة الرائعة ؛ التضامن ، الإحسان ، مساعدة البلدان الناميـــة . إنني أرفض بعضها ، واقبل البعض الآخر .

رنّ الجرس : باقة من الورود الحمراء ، مع بطاقة جان – شارل : «بحنان». ونزعت الدبابيس والورقة الملمّعة ، وكانت بها رغبة أن تقذفها في القمامة . إن الباقة هي دائماً شيء آخر غير الزهور : إنها الصداقة والأمل والعرفان والجذل . ورود حمراء : حبّ ملتهب . هذا بالذات غير صحيح . حق ولا نـدم صادق ، إنها على يقين من ذلك ؛ وأنما هو مجرّد إحالةٍ الى المواضعات الزوجية : لا ينبغي أن يكون ثمة سوء تفاهم في أعياد آخر السنة . ووضعت الورود في إناء من البلور. إنه ليس التهاباً شهوانياً للعاطفة ؛ ولكنها جميلة ؛ واذا كانت قـد حُمّلت رسالة مزيفة ، فانها بريئة منها .

ولامست لورانس بشفتيها البراعم المعطرة . ما هو رأيي حقاً في جان – شارل ؟ وما رأيه فيّ؟ إنها تحسّ بان ذلك لا أهمية له إطلاقاً . إننا على أيّ حال مرتبطان مدى الحيـــاة . لماذا جان – شارل لا سواه ؟ هكذا . (إن امرأة أخرى ، مئات من النساء الصبيّات في هـــذه الدقيقة يتساءلن : لمـــاذا هو لا سواه ؟) فمهما فعل أو قال ، ومهما فعلت أو قالت ، فلن يكون ثمة عقاب . بل من غير المجدي أن نغضب . ليس هناك أيّ عوْن .

ما إن سمعت المفتـــاح يدور في القفل حق ركضت اليه فشكرته ، وتبـادلا قبلة . وكان مشرق الوجه لأن « مونود» عهد اليه في مشروع للمساكن المصنوعة مقدّماً في ضواحي باريس : عملية مضمونة ستحرز ربحاً كبيراً . وتناول غداءه بسرعة (وقد قالت انها أكلت مع الطفلتين . فلا تستطيـع أن تأخـــذ شيئاً)

وذهبا في سيارة اجرة لشراء الهدايا . وسارا في شارع فوبور سانت اونوريه ، والجوّ بارد جميل . وكانت الواجهات مضاءة، وكان في الشارع شجرات عيد الميلاد ، وفي الحوانيت ؛ وكان ثمة رجال ونساء مسرعون أو متسكعون ، وفي أيديهم الرزم ، وعلى شفاههم البسمات . يقال إن المتوحدين هم الذين لا يحبون الأعياد . لقد حاولت عبثاً أن أكون محوطة جداً ، ولكني أنا أيضاً لا أحب الأعياد . كانت أشجار الصنوبر والرزم والبسمات تعكر مزاجها .

وقال جان – شارل :

– أريد أن أقدّم لك هدية جميلة .

– لا تكن مجنوناً . فتلك السيارة التي يجب استبدالها ...

– لا تتكلمي بعدُ عن هذا . إن بي رغبة للقيام بعمل جنونيّ ، وأنا أملك وسائله منذ هذا الصباح .

كانت الواجهات تمرّ على مهل . وشاحات ، شكلات ، سلاسل ، مجوهرات للمليارديرِ – عقود للحلى مع تخاريج من الياقوت ، مشبكات من الجمان الأسود ، أحجار سفير ، زمرّد ، أساور من ذهب ومن الحجر الكريم – وأشياء أكثر تواضعاً ، أحجار من التيرول ، يشم ، وأحجار من الرين ، وفقاقيع زجاجية ترقص فيها على هوى الضوء أشرطة براقة ، مرآة في قلب شمس من القش المذهّب ، قوارير من الزجاج المقعّر ، أوانٍ من البلور الكثيف لوردةٍ واحدة ، أوعية لبنية اللون بيضاء وزرقاء ، قماقم من البورسلين أو اللاك الصيني ، علب مسحوق من ذهب وأخرى مرصعة بالأحجار ، عطور ، غسول ، مرشات ، صدارات من ريش الطيور ، أنواع من الكشمير ، كنزات شقراء من صوف ومن وبر الجمال ، نضارة البياض المزبد ، زغب الأثواب الداخلية ، بذخ الزينة المعدنية الخ ...

وكانت جميع العيون تلمع طمعاً ، عيون الرجال كعيون النساء .

وكانت لي أيضاً هاتان العينان اللامعتان ؛ كنت مشغوفة بدخول الحوانيت وملامسة الأقمشة الكثيرة بالنظر ، والتسكع في هذه البراري الحريرية المرصعة

بالزهور العجيبة ؛ وفي يدي كانت رقّة الموهير والانفورا تسيل، ورطوبة الأقمشة ، وجمال اللينون ، ودفء المخمل المسكر . ولأنها كانت تحبُّ هذه الجنات ذات الأرض المغطاة بالأقمشة الباذخة، والأشجار المحمّلة بالعقيق ، عرفت أن تتحدث عنها فوراً ، وهي الآن ضحية الشعارات الإعلانية التي صنعتها . تشوُّهٌ مهنيّ : فما أن يجذبني ديكور ، أو شيء ، حتى أتساءل لأيّ تأليف للموضوع أستجيب . إنها تشمّ رائحة الحيلة والأكذوبة والخدعة ، وترهقها جميع هذه التصنُّعات ، بل تخنقها على مرّ الأيام. سينتهي بي الأمر الى الانفصال عن كل شيء ... ومع ذلك فقد توقفت عند سترة من جلد الغزال ذات لون غير قابل للتحديد : لون الضباب ، لون الزمن ، لون أثواب الشهادات .

– ما أجملها !

– إشتريها . ولكنها ليست هديتي . فأنا أريد أن أقدّم لك ما هو غير مفيد .

– لا ، لا أريد شراءها .

كانت الرغبة قد زايلتها ؛ فهذه السترة لن يكون لها اللون نفسه ولا المخمل نفسه الذي تنعم به المعاطف الجلدية الناعمة ، والوشاحات البراقة التي تحيط بها في الواجهة ؛ فالواقع ان الطمع إنما ينصبّ على هذا كله عَبر كل شيء من الأشياء المعروضة .

وأشارت الى دكان لآلات التصوير :

– لندخل هنا . فهذا ما سيسرّ كاترين أكثر من أي شيء آخر .

فقال جان – شارل وهو يبدو منشغلاً :

– بكل تأكيد ، فليس وارداً حرمانها من هدية رأس السنة . ولكن اؤكد لك انه يجب اتخاذ الحيطة .

– أعِدُك بأن أفكر في ذلك .

واشتريا آلة سهلة الاستعمال ؛ كان فيها علامة خضراء تشير إلى أن النور مناسب ؛ فاذا كان رديئاً أصبحت حمراء ؛ فالخطأ محال . ستكون كاترين

مسرورة . ولكن ما أريد أن أعطيه إياها انما هو شيء آخر : الأمان، الجذل ، لذة أن تكون موجودة في العالم. وهذا كله ما كنت أدّعي اني أبيعه حين أطلق منتوجاً جديداً . كذب . وفي الواجهات كانت الأشياء ما تزال تحتفظ بالهالةالتي كانت تحيطها على الصورة ذات الورق البراق . ولكن حين كان المرء يمسكها بيده ، لا يرى بعد شيئاً آخر إلا مصباحاً أو مظلة أو آلة تصوير . جامدة ، باردة .

وفي مخازن « مانون ليسكو » كان ثمة كثير من الناس : نساء ، وبعض الرجال والأزواج . وكان هؤلاء من العرسان الجدد : كانوا يتبادلون النظر في حب بينا كان يضع سواراً في معصم زوجته . العيون البرّاقة ، وجان – شارل يعلّق عقداً في عنق لورانس : « هل يروق لك ؟ » عقد ساحر ، متلألىء بسيط ، ولكنه باذخ أكثر مما ينبغي ، ثمين أكثر مما يجب . وانقبضت . لولا خصام هذا الصباح ، ما قدّمه لي جان – شارل . إنه تعويض ، رمز ، بديل . عمّ ؟ عن شيء غير موجود بعد ، بل لعله لم يوجد من قبل قط : علاقة صميمية حارة تجعل جميع الهدايا بلا جدوى .

قال جان – شارل :

– إنه يناسب تماماً .

أتراه لا يُحسّ بيننا ثِقَل الأشياء غير المقولة ؟ لا ثقل الصمت ، بل ثقل الجمل اللامجدية ؟ ألا يُحسّ المسافة والبُعد تحت مجاملة الطقوس ؟

ونزعت الحلية في نوع من الغضب المجنون : كما لو انها كانت تتحرّر من اكذوبة .

– لا ، لست راغبة فيه .

– قلت منذ لحظة انه هو الذي تفضلينه .

– نعم .

وابتسمت بسمة خفيفة :

– ولكن ثمنه غير معقول .

فقال بلهجة مستاءة :

– هذا ما أقرّره أنا . أما اذا كنت لا تحبّينه ، فلنتركه .

وأخذت العقد من جديد : ما جدوى مماكسته ؟ فالأفضل أن ننتهي من الأمر .

– بلى ، إنني أجده رائعاً . ولكني كنت أظنّ ان ثمنه جنونيّ . ولكنّ هذا يعنيك في نهاية الأمر .

– نعم يعنيني .

وحنَتْ رأسها قليلاً ليتمكّن من تعديل العقد : صورة ممتازة لزوجين يحبّ أحدهما الآخر حباً عميقاً بعد عشرة أعوام من الزواج . إنه يشتري الأمن الزوجي ، مباهج البيت ، التفاهم ، الحب ، وعزّة النفس . وتأمّلت نفسها في المرآة :

– كنتَ على حقّ في الإلحاح ، يا حبيبي : فانا مجنونة فرحاً .

كان التقليد احياء سهرة رأس السنة في منزل مارت . وكانت تقول في رضى ومجاملة : « إنه امتياز المرأة في البيت ، وأنا أملك وقتي كله . » وكان هوبير وجان – شارل يتقاسمان النفقات : ولكنّ صعوبات كانت غالباً ما تنهض لأن هوبير بخيل (ولا بدّ من القول إنه لم يكن ينام على الذهب) ولم يكن جان – شارل يريد أن يدفع أكثر من عديله . وقد كان العشاء في السنة الماضية مزرياً تقريباً . أما هذا المساء ، فقد قالت لورانس إن الأمر لا بأس به ، بعد أن فحصت المائدة التي كانت مارت قد نصبتها داخل الصالة وأضفت عليها طابع عيدالميلاد بالشموع وبصنوبرة صغيرة وببعض الغنم وببعض شعر الملائكة والأكر البراقة . وكان أبوهما قد جلب أربع زجاجات من الشمبانيا يحتفظ بها من لدن صديق له ، وجلبت دومينيك كبداً كبيراً تعتبره أكبر كبد في فرنسا كلها . فإذا أضيف الى ذلك لحم البقر المطبوخ، وسلاطة الأرز، والمقبّلات ، والفاكهة، والحلوى وزجاجات الخمر والويسكي ، كان ثمة قدر كبير من الشراب والطعام

يكفي عشرة أشخاص .

وقد كانت دومينيك في الأعوام السابقة تقضي الأعياد مع جيلبير . أما هذا المساء ، فإن لورانس هي التي خطر لها أن تدعوها . وقد سألت أباها :

– هل يزعجك كثيراً أن ندعوها ؟ إنها متوحّدة جداً ، شقية جداً .

– هذا عندي سواء تماماً .

كان الجميع يعرفون أمر القطيعة ، ولكن لم يكن فيهم من يعرف تفاصيلها . وكان ثمة دوفرين وزوجته اللذان اصطحبهما جان – شارل ، وهنري وتيريز فوينو ، وهما صديقان لهوبير . وقد ظهرت دومينيك بمظهر الجدّة الشابة في « العيد العائلي » فكانت ترتدي ثوباً بسيطاً من الجرسيه بلون العسل ، ويبدو شعرها أبيض أكثر منه أشقر . وكانت تبتسم في رقة قريبة من الخجل وتتكلم بهدوء ؛ وكانت قد أفرطت في استعمال المهدّئات مما أضفى عليها هذا المظهر من الغفلة والجمود . وكان وجهها يسترخي ما أن تكون وحدها .

واقتربت منها لورانس :

– كيف قضيت الإسبوع ؟

– لا بأس ؛ لقد نمت بما فيه الكفاية .

بسمة آلية : فكأنها تشدّ على زاويتي شفتيها بخيطين صغيرين ، ثم ترخي الخيطين .

– لقد قررت أن أبيع منزل فوفرول ، وأنا لا أستطيع أن أقوم على صيانة مثل هذا الملك وحدي .

– هذا ما يؤسف له . ليت بالإمكان إيجاد وسيلة لتدبّر ذلك ...

– ما الفائدة ؟ مَنْ تريدينني أن أستقبل ، الآن ؟ كان الأشخاص الهامّون من أمثال هودان وتيريون وفردوليه انما يأتون من أجل جيلبير .

– اوه ! وسيأتون من أجلك .

– أتظنين ذلك؟ إنك ما زلت تجهلين الحياة . إن المرأة ليست – اجتماعياً – شيئاً بلا رجل .

– هذا لا ينطبق عليك . إنّ لك اسمك ، ومركزك .

فهزّت دومينيك رأسها :

– حتى ولو كان للمرأة اسم ، فإنهـا من غير رجل نصف فاشلة ، نوعٌ من الحطام ... إنني أتصوّر جيداً كيف ينظر إليّ الناس : صدّقيني ان الأمر ليس كما كان من قبل .

كانت الوحدة الآن فكرة مسيطرة على دومينيك .

كانت اسطوانة تدور ، كانت تيريز ترقص مع هوبير ، ومارت مع فوينو ، وجان – شارل مع جيزيل ، وقد دعا دوفرين لورانس . وكانوا جميعاً يرقصون برداءة . وقال دوفرين :

– إنك باهرة هذا المساء .

ولمحت نفسها في مرآة . كانت تضع فرواً أسود وهذا العقد الذي لا تحبّه . على انه كان جميلاً ، وقد قدّمه جان – شارل إرضاءً لهـا . وإنها لتجد نفسها ذات شخصية . وكان دوفرين قد بدأ يسرف في الشرب ، وكان صوتـه أشد عجلة من المعتاد . فتى لطيف ، رفيق طيب لجان – شارل (بالرغم من انهـما في الواقع لا يحبّ أحدهما الآخر الى هذا الحدّ ، بل الأحرى انهما متحاسدان) ولكنها لا تكنّ له ودّاً خاصاً .

وغيّروا الاسطوانة ، فغيّرت كل منهنّ الفارس . وسألها جان – شارل :

– سيدتي العزيزة ، هل تمنحينني هذه الرقصة ؟

– بكل رضى .

قال جان – شارل :

– عجيبٌ أن نراهما معاً من جديد !

وتبعت لورانس نظره ، فرأت أباها ودومينيك جالسين أحدهما تجاه الآخر يتحدّثان ببشاشة . أجل ، كان ذلك عجيباً .

وقال جان – شارل :

– يبدو انها قد انتصرت على همّها .

– انها تتخم نفسها بالمهدّئات وعقاقير مقاومة المعاكسات .
وقال جان ـ شارل :
– عليهما في الحقيقة أن يستعيدا حياتهما المشتركة .
– مَنْ تعني ؟
– امك وأبوك .
– أنت مجنون !
– ولماذا ؟
– إن لكل منهما مزاجاً معاكساً تماماً لمزاج الآخر . فهي امرأة اجتماعية ، وهو رجل متوحّد .
– إنهما كليهما متوحّدان .
– ليس لهذا علاقة بالأمر .
وأوقفت مارت الاسطوانة :
– سيأذن منتصف الليل بعد ربع ساعة .
وتناول هوبير زجاجة شمبانيا :
– إنني أعرف طريقة ممتازة لفتح زجاجة الشمبانيا . وقد بعت منذ أيام في بورصة الأفكار .
قال دوفرين :
– رأيت ذلك . أما أنا ، فعندي طريقة أبرع .
– هات نرى ...
وفجّر كلٌّ منهما سدادة زجاجة من غير أن يُريق قطرة ، وبدا عليهما الفخر الشديد (بالرغم من أن كلا منهما كان يؤثر لو أن الآخر قد فشل بعمله) وملئت الأقداح .
– عام سعيد !
– عام سعيد .
وتصادمت الكؤوس ، وتبودلت القبلات والضحكات ، وتحت النوافذ

انفجرت حفلة الزمامير .

قالت لورانس :

– أية ضجة مريعة !

فقال أبوها :

– لقد أعطوا خمس دقائق ، كما لو انهم أطفال يحتاجون الى الصراخ بين ساعتين من الدروس . في حين انهم بالفون متحضّرون .

قال هوبير :

– لا بدّ من تسجيل الحادث .

وفتحوا الزجاجتين الأخريين ، ثم حملوا الرزم المركومة خلف احدى الأرائك ، فقُطعت الخيطان المذهّبة ، وحُلّت الأشرطة ، وفتحت الأوراق ذات الألوان البراقة المطبوعة بالنجوم وبشجر الصنوبر ، بينما كان كلّ منهم يترصّد الآخرين بطرف عينه ، ليعرف من هو الرابح في هذا الا « بوتلاتش[1] » .
ولاحظت لورانس : « نحن الرابحان » . لقد وجدا لدوفرين ساعةً تسجّل الوقت في فرنسا وفي جميع بلاد العالم ؛ ولأبيها جهاز تلفون رائع ، نسخة عن القديم ، ينسجم تماماً مع مصابيح البترول القديمة . أما هداياهما الأخرى فكانت أقل طرافة ، ولكنها لطيفة . أما دوفرين فقد قدّم لجان ـ شارل قلباً أبدياً يخفق سبعين خفقة في الدقيقة ، وللورانس آلة غنائية صغيرة لن تجرؤ أبداً على تركيبها على مقود سيارتها اذا كانت حقاً تقلد غناء البلبل . ولكن جان ـ شارل كان مسحوراً : إن الأشياء التي لا تنفع ولا تروي شيئاً هي المفضّلة عنده . وقد تلقت أيضاً قفازات وعطوراً ومناديل ، وكان كلّ منهم ينتشي ، ويصرخ معجباً ، ويشكر .

وقالت مارت :

– خذوا صحونكم فاجلسوا واخدموا أنفسكم .

ضجيج ، وأصوات صحون ، هذا لذيذ ، ضعوا كمية أكبر ، وسمعت لورانس

---

(١) عيد ديني لهنود أميركا يجري فيه تبادل الهدايا (هـ . م) .

صوت أبيها :

– ألم تكن تعرف هذا ؟ يجب تعتيق الخمر بعد فضّ زجاجته، لا قبل ذلك.

– إنه عظيم .

– إن جان ـ شارل هو الذي اختاره .

– نعم ، أعرف بائعاً للخمور ممتازاً .

وكان بوسع جان ـ شارل أن يجد ممتازاً ذلك الخمر الذي له مذاق السدادة ، ولكنه كان يتكلّف دور العارف ، كالآخرين . وأفرغت قدح شمبانيا . وكانوا يضحكون ويمزحون ، ولم تكن هي تجد مزاحهم طريفاً . في العام الماضي ... لم تُصِب كذلك تسليةً أكبر ، ولكنها تظاهرت بذلك ؛ أما هذا العام ، فليست بها رغبةٌ لأن تقسر نفسها ، فذلك مُتعبٌ في نهاية الأمر. ثم انها في العام الماضي كانت تفكر بلوسيان : نوع من الحجّة . كانت تفكر بأن ثمة واحداً كانت تودّ لو تكون معه ؛ ولقد كانت الحسرة لهباً رومانتيكياً صغيراً كان يدفئها . أما الآن ، فليس بعدُ من حسرة . لماذا تراها قد عزمت على افراغ حياتها ، وتوفير وقتها وقواها وقلبها ، في حين انها لم تكن تعرف جيداً ماذا تفعل بوقتها وقواها وقلبها ؟ أهي حياةٌ مليئة أكثر مما ينبغي ؟ فارغة أكثر مما ينبغي ؟ مليئة بأشياء فارغة ، أي اختلاط !

قال فوينو :

– ومع ذلك ، افحصوا جانب الحياة في عدد من القرنبيات وفي برج الجوزاء تجدوا في داخل كل فريق مشابهات مقلقة .

فقال دوفرين :

– ليس من المستبعد ، علمياً ، أن تؤثر الكواكب على مصائرنا .

– كفى ! كفى ! الحقيقة أن هذه الفترة هي وضعيةٌ بشكل مسطح بحيث انّ الناس محتاجون ، على سبيل التعويض ، إلى ما هو خياليّ عجيب . إننا نصنع آلات الكترونية ونقرأ مجلة « بلانيت » .

وابتهجت لورانس لحماسة أبيها : لقد ظلّ شابّاً ، بل أكثرهم شباباً .

وقالت مارت :

– هذا صحيح . أما أنا فأفضّل قراءة الإنجيل واؤمن بأسرار الدين .

فقالت السيدة فورينو :

– وحتى في الدين يضيع معنى السرّ . إنني أجد من المفجع المحزن إقامة القداس بالفرنسية ، وفضلاً عن ذلك على أنغام الموسيقى العصرية .

فقالت مارت بصوتها الملهم :

– آه ! لست موافقة . فإن على الكنيسة أن تعايش عصرها .

– الى حدّ ما .

وابتعدتا تتابعان بصوت منخفض مناقشة ينبغي ألاّ تسمعها الآذان غير التقيّة .

وسألت جيزيل دوفرين :

– هل رأيتم أمس في التلفزيون برنامج « أحداث السنة الماضية » ؟

فقالت لورانس :

– نعم ؛ يبدو اننا عشنا سنة عجيبة : انني لم أحسّ بها .

قال دوفرين :

– إن السنوات كلها كذلك ، ولكننا لا نحسّ بها .

إننا نرى « الأحداث » وصور « ماتش » فننساها تدريجياً . وحين نجدها كلها معاً ، نصاب ببعض الدهشة . جثث دامية للبيض والسود ، أوتوكارات منقلبة في الأنهر والمجاري ، خمسة وعشرون طفلاً مقتولون. وآخرون مقطوعون الى قسمين ، حرائق ، بقايا طائرات محطمة ، مئة وعشرة ركاب مقتولون على الفور ، عواصف وفيضانات ، بلاد برمّتها يصيبها الخراب ، قرى تحترق ، اضطرابات عرقية ، حروب محلية ، صفوف من اللاجئين المشرّدين . إنّ ذلك يثير الحزن الى حدّ الرغبة في الضحك . ويجب القول إن المرء يشهد جميع هذه الكوارث وهو مقيم على غاية الراحة في إطاره العائلي . وليس صحيحاً ان العالم

ينفذ اليه : فإنه لا يرى إلا صوراً مؤطّرة على الشاشة الصغيرة وليس لها وزنها من الحقيقة .

وقالت لورانس :

– إنني أتساءل عما عساه يكون رأيهم بعد عشرين عاماً في فيلم عن فرنسا بعد عشرين عاماً .

فقال جان – شارل :

– سيثير الابتسام من بعض نواحيه ، كجميع ألوان التنبّؤات . ولكنه إجمالاً صحيح .

لقد عُرض عليهم ، على سبيل المفارقة مع هذه الكوارث، برنامج عن فرنسا بعد عشرين عاماً . انتصار التخطيط المدني : ففي كل مكان مدنٌ مشرقة تشبه ، في ارتفاعها على مئة وعشرين متراً ، خلايا نحل ، أو قرايا نمل ، ولكنها تقطر شمساً . أوتوسترادات، مختبرات، معاهد جامعية. وقد أوضح المعلّق أن النقيصة الوحيدة هي أن الفرنسيين سينهارون تحت عبء بحبوحة كبيرة حتى ليوشكوا أن يفقدوا كل طاقة . وعرضت ، بشكلٍ بطيء ، صور شبّان لا مبالين لا يبذلون حتى جهد وضع قدمٍ أمام الأخرى . وسمعت لورانس صوت أبيها :

– إننا نلاحظ إجمالاً بعد خمسة أعوام أو حتى عام واحد أن المصمّمين والمتنبّئين الآخرين كانوا على خطأ كامل .

فنظر اليه جان – شارل نظرة ترفع أصابه بعض التعب :

– أنت لا تعرف بلا شك أن التنبّؤ بالمستقبل هو الآن بسبيل أن يصبح علماً صحيحاً ؟ ألم تسمع قط عما يسمّى بـ « راند كوربورايشن » ؟

– لا .

– إنها منظمة أميركية مُزوّدة بوسائل هائلة . وفيها يُسأل اخصائيون في كل نظام ويُعمل حساب المعدّلات المتوسّطة . وهناك الوف من العلماء ، في العالم كله ، يشاركون في هذا العمل .

واغتاظت لورانس للهجته المتعالية .

– على أي حال ، حين يُروى لنا أن الفرنسيين لن يفتقروا الى شيء . فلا حاجة لاستشارة ألوف الاخصائيين لمعرفة أن الأغلبية ستكون بعد عشرين عاماً ما تزال محتاجة الى الحمّامات ما داموا لا يبنون في معظم البيوت الحديثة الا قاعات للماء .

وكان هذا الأمر قد أثار استنكارها حين عرض عليها جان – شارل مشروعه للمساكن المصنوعة سلفاً .

وسألت تيريز فوينو .

– ولماذا لا يكون هناك حمّامات ؟

فقال جان – شارل :

– ان الأنابيب تكلف غالياً جداً ، وهذا ما يرفع ثمن المساكن .

– واذا خُفّضت الأرباح ؟

فقال فوينو :

– ولكن اذا خُفضت أكثر مما ينبغي فلن يكون هناك من يهتم بعد بالبناء يا عزيزتي .

ونظرت اليه زوجته في غير ما ودّ . أربعة أزواج شبّان : ومَنْ يحب من؟ لماذا يُحَب هوبير ، أو دوفرين ، لماذا يحَبُ أيٌّ كان ، بعد أن تنقضي الشعلة الجنسية الأولى ؟

وأفرَغت لورانس قدَحيْ شمبانيا ، وأوضح دوفرين أنه من الصعب ، في قضايا الأرض ، خطُّ حدٍّ بين الاختلاس والتجارة : فالمرء مضطر الى اختراق الشرعية .

قال هوبير :

– إنّ ما تقوله هنا مُقلق جداً .

وبدا منزعجاً حقاً . وتبادلت لورانس مع أبيها بسمةً عابثة . وقال :

– انني لا أستطيع أن أصدق ذلك . فاذا حرص المرء على أن يظلّ شريفاً ، فلا شك ان الوسائل متوفرة لذلك .

– شريطة أن يقوم بمهنة أخرى .

ووضعت مارت اسطوانة أخرى ، فعادوا الى الرقص ؛ وحاولت لورانس أن تعلم هوبير رقصة « الجرك »، فبذل جهداً، ولهث ، وكان الآخرون ينظرون اليها في سخرية ؛ رأوقفت الدرس فجأة واقتربت من أبيها الذي كان ينـــاقش دوفرين وزوجته .

– ليس في فمك إلا كلمة « باطل الطرز » . الرواية الكلاسيكية باطـــلة الطرز . النزعة الانسانية باطلة الطرز . ولكني حين أدافع عن بلزاك وعن النزعة الانسانية فربما كنت على طرز الغد . إنـــك الآن تبصق على الفن التجريدي . وإذن فقد كنت متقدّماً عليك منذ عشرة أعوام حين كنت أرفض إقرار ذلك . الحقيقة أن هناك شيئاً آخر غير الطرز : هناك قيم ، هناك حقائق .

ولقد فكرت غالباً بما قاله هنا : صحيح اني لم أفكر فيه بهذه الكلمات ، أما وانها قد قيلت الآن ، فهي تعتبرها كلماتها . قيمٌ وحقائق تصمد للطـُرز ، انهـا تؤمن بها . ولكن ما هي بالضبط ؟

إن الفنّ التجريدي لا يُباع بعد ؛ ولكن التشكيلي كذلك ، انها أزمـــة الرسم في الحقيقة ، وقد حصل فيها تضخّم ، كلام مكرور . وضجرت لورانس. وفكرت : ان بي رغبةً أن أستشيرهم في أمر : إنك تملك تأميناً ضد الغـــير ، ويرتمي راكب دراجـــة تحت عجلاتك ؛ فهل تقتل راكب الدراجـــة أم تحطم سيارتك ؟ من ذا الذي يختار في صدق واخلاص أن يدفع ثمانمئـــة الف فرنك من أجل انقاذ حياة مجهول ؟ بابا ، بالطبع . ومارت ؟ إن عندي شكوكاً بشأن موقفها ؛ وهي على أيّ حـــال ليست إلا آلة بين يدي الربّ : فلئن قرّر أن يستردّ اليه الفتى المسكين ... والآخرون ؟ إذا كان ردّ فعلهم ضرورة تفـــادي الشابّ ، فأنا على ثقة من أنهم بعد ذلك سيندمون على هذا . « إن جان ــ شارل لم يكن ليمزح . » كم مرة ردّدت هـــذه الجملة في هذا الاسبوع ؟ انها مـــا تزال تردّدها . أأكون أنا غير الطبيعية ؟ قلقة ، مأزومة : ما الذي أملكه ممـــا لا يملكون ؟ انني لا أبالي براكب الدراجة ذلك الأحمر ؛ وقد كان يكون كريهاً لي

أن أسحقه . إنه تأثير بابا . فلا شيء في نظره يساوي حياة بشرية ، حتى ولو كان يرى البشر يستدعون الرثاء . وليس للمال قيمة عنده . أما أنا ، فله قيمة عندي ؛ ولكن أقلّ مع ذلك من قيمته لديهم جميعاً . وأرهفت أذنها لأن أباها كان هو الذي يتكلم : إنه هذه الليلة أقل صمتاً منه في السنوات السابقة :

— مركّب الخصاء! إن هذا لا يشرح بعدُ شيئاً لفرط ما شرح كل شيء . . . إنني أتصوّر طبيباً نفسياً أقبل يساعد محكوماً بالإعدام صبيحة يوم التنفيذ فوجده يبكي ؛ فهو سيقول له : أيّ مركّب للخصاء هذا الذي تعانيه !

وضحكوا ، ثم تابعوا نقاشهم ، فقال أبوها :

— هل تبحثين عن فكرة ؟ لأي نتاج جديد ؟

وابتسم للورانس :

— لا ، بل كنت أحلم . إن قصصهم المالية تضجرني .

— انني أفهمك . هم يعتقدون بصراحة ان المال هو الذي يصنع السعادة .

— لاحظ ؛ إنّ ذلك يُساعد .

— أنا غير واثق حتى من هذا .

وجلس إلى قربها :

— انني لا أراك بعد .

— لقد انشغلت طويلاً بدومينيك .

— إنها أقلّ حماسة من السابق .

— بسبب الانهيار العصبي .

— وأنت ؟

— أنا ؟

— كيف حالك ؟

— إن مرحلة الأعياد مُتعبة .

— انك لا تعرفين ما فكرت فيه : لا بدّ أن نقوم برحلة قصيرة نحن الاثنين.

— نحن الاثنين ؟

حلمٌ قديم لم يحقّق قطّ ؛ كانت في الماضي أصغر سناً من أن تقوم بـه ، ثم جاء جان ـ شارل والطفلتان .

– إن عندي مأذونية في شباط وأودّ أن أستغلّها لرؤية اليونان ثانية . ألا تستطيعين أن تتدبّري أمرك لتصحبيني ؟

كانت الفرحة في نفسها كسهم ناريّ . إن من اليسير ، في شباط ، الحصول على خمسة عشر يوماً من العطلة ، وإن عندي مالاً في حسابي . ولكن هل يحدث يوماً أن يتحقق حلمٌ ما ؟

– اذا كانت الطفلتان على ما يرام ، وكل شيء على ما يرام ، ربما كان بامكاني أن أتدبّر الأمر . ولكن هذا يبدو لي أجمل من أن يمكن تحقيقه ...

– حاولي ذلك !

– بكل تأكيد ، سأحاول .

خمسة عشر يوماً . سيتاح لي الوقت اخيراً لطرح الاسئلة ، والحصول على الأجوبة المعلّقة منذ سنوات. وسأعرف مذاق حياته . وسأقف على السرّ الذي يجعله مختلفاً هذا الاختلاف عن الجميع وعنّي انا نفسي ، قادراً على بعث هـذا الحبّ الذي لا أكنّه لسواه .

– سأبذل كل شيء لتحقيق ذلك . ولكن انت ، لن تغيّر رأيك ؟

فقال في جلالة ، كما كان يقول وهي صغيرة :

– اقسم بالصليب الخشبي ، وبالصليب الحديدي اني اذا كذبت فلأذهب الى جهنّم !

الفصل الرابع

انني أتذكّر فيلماً لبونويل لم يحبّه أحدٌ منا . وهو مع ذلك يستــولي عليّ منذ حين . كان ثمة أشخاص محجوزون في دائرة سحرية يروون بالاتفاق لحظةً من ماضيهم ؛ كانوا يَصِلون خيط الزمن ويتجنّبون الفخّ الذي سقطــوا فيه من غير ان يعرفوا . (صحيح انهم فيما بعد استعــــادوا وعيهم بذلك) وأودّ أنا ايضاً أن اعود الى الماضي ، وأحبط الشَرَك ، وانجح فيما فاتني . ما الذي فاتني؟ حتى هذا لا أعرفه . ليس لديّ كلام للشكوى او للأسف . ولكن هذه العقدة في حلقي تمنعني من الطعام .

لنبدأ من جديد . إنّ لديّ الوقت كله . وأسدلت الستائر ، ودخلت السرير وأغمضت عينيّ . سأراجع هذه الرحلة صورة صورة وكلمة كلمة .

انفجار الفرح ذاك حين سألني : « هل تأتين معي الى اليــونان ؟ » وكنت مترددة رغم كل شيء . ودفعني جــان – شارل . كان يحدثني كئيبة . ثم انني كنت قد قبلت آخر الأمر ان تذهب كاترين لرؤية عالم نفسيّ : وكان يعتقد أن غيابي سيسهّل علاقتهما .

كان بابا يقول : « الذهاب الى اثينا في طائرة كارافيــل هو رغم كل شيء مؤسف » . اما انا فأحب الطائرات النفاثة . إن الطائرة تنقضّ بوحشية نحو السماء ، واني اسمعها تفجّر جدران سجني : حياتي الضيقة المحاصرة بملايين اخرى من الحيوات والتي اجهل منها كل شيء . إن البنايات الشاهقة والبيوت الصغيرة تنمحي ، وانا أحلّــق فوق جميع الحواجز ، هاربة من الثقــل ؛ وفوق رأسي ينبسط المدى الأزرق الى ما لا حدّ له ، وتحت قدميّ تمتدّ المشاهد البيضــاء التي تبهرني والتي لا وجود لها . انني في مكان آخر : في لا مكان وفي كل مكان .

وأخذ أبي يحدّثني عمّا سيريني إياه ، وعما سنكتشفه معاً . وكنت افكر : « بل انت الذي اريد ان اكتشف » .

هبوط . عذوبة الهواء ، رائحة البنزين ممتزجة برائحة البحر والصنوبر ؛ السماء الصافية ، والتلال البعيدة التي تُسمّى احداهـا « هيات » – نحلٌ يحني جنبيه فوق ارض بنفسجية – وكان بابا يترجم الاحرف المكتوبة في أعالي البنايات : المدخل ، المخرج ، البريد . وكنت احبّ ان اجد امام هذه الأبجدية سرّ اللغة الطفولي الذي منه كان يأتيني في الماضي معنى الكلمات والأشياء . وكان يقول لي على الأوتوستراد : « لا تنظري » (كان خائباً بعض الخيبة ان تستبدل طريق شبابها المتصدّعة القديمة) « لا تنظري : إن جمال معبدٍ ما مرتبط بالموقع ؛ فيجب رؤيته على بعد معيّن ، لا على بُعد آخر ، تقديراً لانسجامه . ليست القضية شبيهة بقضية الكاتدرائيات التي هي على البعد مؤثّرة – بل ربما احياناً اكثر تأثيراً – مثلها على القرب » وكانت هذه الاحتياطات تعطّفني . والواقع ان « البارتينون » كان يشبه ، وهو منتصب على رابيته ، تلك النسخ من الصور المزيّفة الرخام التي تباع في مخازن الهدايا التذكارية . لم تكن له أية شخصية . ولكن هذا كان عندي سواء . إن ما كان يعنيني هو ان انطلق الى جانب بابا في السيارة البرتقالية الرمادية – تلك السيارات اليونانية العمومية التي كانت لها الوان غريبة من شراب الكشمش الأسود او البوظة بالليمون – وأمامنا عشرون يوماً . وكنت ادخل غرفة فندق فارتب ثيابي من غير أن يكون لديّ شعورٌ باني امثل دور سائح في فيلم دعائي : إن كل ما كان يحدث لي كان صحيحاً . وفي الساحة التي تشبه سطيحة مقهى واسعة ، طلب لي بابا شراباً بالكرز ، بارداً ، خفيفاً ، مزّاً بعض الشيء ، ذا مذاق طفولي لذيذ . وعرفت ما كانت تعنيه تلك الكلمة التي تُقرأ في الكتب : السعادة . كنت قد عرفت الواناً من المرح والبهجة والانتصارات الصغيرة والحنان ؛ اما هذا التناغم بين سماء زرقاء ومذاق فاكهيّ ، وبين الماضي والحاضر المجتمعين في وجه أثير ، وتلك الطمأنينة فيّ ، انما كنت أجهله – إلا عبر ذكريات قديمة جداً . السعادة : كأنما

هي حجة تمنحها الحيـــاة لنفسها . كانت تسربلني فيما كنا نأكل لحم خروف مشوياً في حانة . وكنا نلمح جدار الاكروبول سابحاً في ضوء برتقالي ، وكان بابا يقول إن ذلك كان تدنيساً للقدسيات ! أما انا ، فكان كل شيء يبدو لي جميلاً . وقد احببت الطعم الصيدلي للخمر المُصَمَّغ . كان بابا يقول باسماً : « انت رفيقة السفر النموذجية . وفي اليوم التـالي كان يبتسم على الأكروبول لأني كنت اصغي اليـه بحماسة فيما كان يشرح : أعلى الافريز ، الطنف ، النقوش ، زخـارف السقوف، اعلى تاج العمود ، النتوءات ؛ وكان يلفت انتباهي الى التقويس الخفيف الذي كان يحدّ من قسوة الخطوط الافقية ، وميل الاعمدة العموديـة ، وجلبتها ودقة النِسَب . وكان ثمة بعض البرد ، وكانت الريح تصفر تحت سماء صافية . وكنت ارى من بعيـــد ، الروابي ، والبحر وبيوتاً صغيرة جافـة بلون الخبز الرمادي ، وكان صوت بابا يسيل عليّ ، كنت في حالة رضى كامل .

وكان يقول : « إن بامكاننا أن نأخذ على الغرب كثيراً من الاشياء . لقـد ارتكبنا اخطاء عظيمة . ولكن الانسان مع ذلك قد حقق فيه نفسه وعبّر عن نفسه بطريقة لم يكن لها مثيل » .

استأجرنا سيارة ؛ وكنا نزور الضواحي ، وكنا ، كل يوم ، قبـــل مغيب الشمس ، نرقى الى الأكروبول او الى البينكس او الى ليكابت . وكان بابا يرفض الذهاب الى المدينة الحديثة . وكان يقول لي : « ليس هناك ما يُرى فيهـــا . » وفي المساء كان يأخذني ، بناء على نصيحة صديق قديم ، الى حانة صغيرة نموذجية : مغارة على شاطىء البحر مزينة بشباك الصيد والصدف . « إنها أدعى للتسلية من المطاعم الكبيرة التي تحبها امك » . أما انا فكنت اعتبرهـا شركاً للسواح كالاشراك الاخرى . فبدلاً من الأناقة والبذخ ، كانوا يبيعون فيها اللون المحلي وشعوراً خفياً بالتفوق على معتادي الفنادق الفخمة (لو طُلب موضوع دعـائي مناسب لكان : كن « مختلفـاً » ؛ او مكان مختلف .) وكان بابا يتبادل بعض الكلمات باللاتينيـة مع صاحب الحانة الذي كان يُدخلنـــا ، كما يُدخل جميع الزبائن ، - ولكن كلاً منهم كان يحس بانه ذو امتياز - الى المطبخ ، ويرفع غطاء

القدور ؛ لقد كانوا يضعون الطعام بعناية كبيرة . وكنت آكل بشهية وبغير اكتراث ...

صوت مارت :

– لورانس ! يجب ان تأكلي شيئاً ما .

– انني نائمة ، فدعيني .

– حساء على الاقل . سأعدّ لك حساء .

لقد ازعجتني . اين كنت من رواية رحلتي ؟ طريق دلف . كنت احب المنظر الخشن الأبيض ، ونـَفـَسَ الريح الثـاقب على البحر الصيفي ؛ ولكني لم أكن ارى شيئاً آخر الا ّ الحجارة والماء ، عمياء عن كل هذه الأشياء التي كان ابي يُريني إيّاها . (عيناها ، عينـــا كاترين : رؤى مختلفة ولكنها ملوّنة ، مؤثرة ؛ وانا الى جانبها ، عمياء) كان يقول لي : « انظري ، هذا هو المكان الذي قتل فيه اوديب لايوس . » لقد حدث هذا ، أمس ، وهذه الحكاية كانت تعنيه . مغارة « بيتي » ، الساحة ، المعابد ؛ كان يشرح لي كل حجر ، وكنت أصغي وابذل الجهد : عبثاً ؛ كان الماضي يظـل ميتاً . وقد أتعبني قليلاً أن أندهش ، وأعجب . « الاورريج » : « إنـــه يحدث هزّة ، أليس كذلك ؟ » – « نعم ، إنه رائع ! » وكنت ادرك ما عسى ان يجد النـــاس لهذا الرجل الطويل من البرونز الأخضر ؛ اما الهزّة ، فلم أكن لأحسّهـــا . كنت اشعر من ذلك بالاستياء ، بل حتى بالندم . ولحظـــاتي المفضّلة كانت تلك التي نقضيها جالسين في حانـــة صغيرة نتحدث ونشرب « الأوزو » . وكان يحـدّثني عن رحلاته السابقة : وكم كان يودّ لو تصحبه فيها دومينيك ، ونحن ايضاً بمجرّد أن نكبر . « تصوّري انها رأت البرمود واميركا، ولكن لا اليونان ولا ايطاليا! على أيّ حال ، ارى أنها تغيرت الى أفضل . ربما كان ذلك بسبب هذه الضربة القاسية ، لا ادري . انها اكثر انفتاحاً ، واوفر نضجاً ، واشد عذوبة وتبصراً » فلم أخالف رأيه ، انني لم اكن اريـد ان احرم امي المسكينة من فضـــلات الصداقة التي كان يوليها إياها .

أمن « دلف » كان ينبغي الانطلاق للعودة الى الزمن القهقرى ؟ كنا جالسين في مقهى مشرف على الوادي ؛ وكنا نحدس عبر الفتحات الزجاجية بالليل البارد الصافي وبمجموعات نجومه التي لا تحصى ؛ وكانت ثمة فرقة موسيقية صغيرة تعزف ، وزوجان من السيّاح الاميركيين ، وكثير من سكان البلد : عشاق ، وعصابات من الفتيان ، وأسر . وأخذت فتاة صغيرة ترقص ، وكانت في الثالثة او الرابعة من عمرها ؛ كانت دقيقة العود ، سمراء ، ذات عينين سوداوين ، ترتدي ثوباً أصفر واسع الأسفل مبرعماً حول ركبتيها وجراباً ابيض ؛ وكانت تدور حول نفسها ، مرفوعة الذراعين ، غارقة الوجه بالنشوة ، في هيئة شبه جنونية . كانت محمولة بالموسيقى ، مبهورة ، ثملة ، مشوّهة ، ضائعة . وكانت امّها الهادئة السمينة تثرثر مع امرأة اخرى ضخمة ، فيما هي تدفع وتجذب عربة صغيرة فيها طفل ؛ كانت لا تحسّ الموسيقى ولا الليل ، فكانت تلقي احياناً على الصغيرة الملهمة نظرة مسطحة .

— هل رأيت الطفلة ؟

فقال بابا في عدم اكتراث :

— انها لطيفة .

طفلة لطيفة سوف تصبح هذه السيدةَ المسنةَ العاقلة . لا . لم اكن اريد . أتراني قد شربت من « الاوزو » اكثر مما ينبغي ؟ لقد كنت انا ايضاً مأخوذة بهذه الطفلة التي كانت مأخوذة بالموسيقى . ولن يكون لهذه اللحظة المهووسة من نهاية . إن الراقصة الصغيرة لن تكبر ؛ ستظلّ تدور حول نفسها طوال الأبد ، وسأظل انظر اليها ؛ كنت ارفض ان انساها ، وان اعود امرأة شابّة تسافر مع أبيها ؛ كنت أرفض ان تشبه أمها ذات يوم ، غير ذاكرة انها كانت هذه الساحرة الرائعة. محكومة صغيرة بالموت ، موت فظيع بلا جثة. إن الحياة ستغتالها . وفكرت بكاترين التي كانت تُغتال .

وقلت فجأة : ما كان لي أن اقبل ارسال كاترين الى عالمة نفسية .

فنظر اليّ بابا مندهشاً . لا شك في ان كاترين كانت بعيدة جداً عن ذهنه .

ـ لماذا تفكرين في هذا ؟

ـ انني افكر فيه غالباً . فانا مشغولة الفكر . لقـد قسروني قسراً ، وانا آسفة لذلك .

فقال بابا بلهجة مبهمة :

ـ لا اعتقد ان هذا سيعود عليها باي ضرر .

ـ لو كنت مكانها ، أكنت ترسلني الى عالم نفسي ؟

ـ آه ! لا .

ـ انك ترى اذن .

ـ الحقيقة انني لا ادري ؛ فالقضية لم تكن واردة : كنتِ متزنة تماماً .

ـ عام ٥٤ كنت مضطربة بما فيه الكفاية .

ـ كان لذلك اسباب .

ـ واليوم ، أليس من اسباب ؟

ـ بلى أعتقد أن بلى . لا شك ان من الطبيعي في كل مرحلة ان يكون المرء مذعوراً حين يبدأ في اكتشاف العالم .

فقلت :

ـ إننا اذن نجعلها غير طبيعية اذا اردنا ان نطمئنها .

كانت تلك بديهة ، وقد صعقتني. فبحجة شفاء كاترين من هذه «الحساسية» التي كانت تُقلق جان ـ شارل ، كانوا على وشك تشويهها . وأخذتني الرغبة في أن اعود في اليوم التالي بالذات ، وان استردها منه .

ـ انني افضل ان يتدبر الناس امورهم وحدهم . والحقيقة انني اعتقد ان علم النفس هذا كله ، انما هو شعوذة وتدجيل ـ لا ترددي ذلك خشية ان أتهَم بانني متخلف عجوز ـ ستجدين كاترين كما تركتها .

ـ اتظن ذلك ؟

ـ بل انا مقتنع به .

واخذ يتحدث عن النزهة التي كان قد رسمها لليوم التالي . انه لم يكن يحمل

هومي على محمل الجد ، وكان ذلك طبيعياً . وانا لم اكن اهتم كثيراً بالاحجار القديمة التي كانت تسحره . وقد كنت اكون ظالمة لو آخذته على ذلك . لا . لم يكن الخط قد تحطم في دِ داف .

ميسان . ربما كان ذلك في ميسان . في ايـة لحظة بالضبط ؟ لقد سلكنا طريقاً محصباً ؛ وكانت الريح تثير دوامـــات من غبار . وفجأة رأيت هذا الباب ، وهاتين اللبوءتين المقطعتين . وكان ان احسست ... أحدثت هنا الصدمة التي كان ابي يحدّثني عنها ؟ بل الأفضل ان اقول : انه رعب . لقـــد اتبعت « الدرب الملكي » . ورأيت السطائح ، والاسوار ، والمنظر الذي كانت تراه كليتمنستر حين كانت تترقب عودة اغاممنون . وكان يخيل اليّ اني منتزعة من نفسي . اين تراني قد كنت ؟ إن العصر الذي كان فيــه الناس يروحون ويغدون ، وينامون ويأكلون في هذا القصر الذي ظل على حاله ، لم اكن لأنتمي اليه . وحياتي انا لم يكن يعنيها شيء من هذه الخرائب . فماذا يعني اثر مندثر ؟ انه ليس الحاضر ولا الماضي ، وليس هو كذلك الابد : فانــه سيزول ذات يوم بلا ريب . كنت اقول لنفسي « ما اجمل هذا ! » وكنت على حافـة دوار ، مأخوذة في دوّامة متجاذبة ، مرفوضة . محالة الى « لا شيء » . كنت اود لو اعود الى « جناح السياحة » لاقضي النهار في قراءة الروايات البوليسية وكان ثمة فريق من الامريكيين يلتقطون صوراً ، فقـــال بابا : « أي برابرة ! إنهم يصورون ليعفوا انفسهم من النظر . » وكان يحدّثني عن الحضارة الميسانية وعن عظمة الاتريديين وعن خرابهم الذي كانت قد نبأت به كسّاندر ؛ وكان يحمل دليلاً في يده ويحاول ان يتعرّف الى كل بوصـــة من الأرض . وكنت اقول في نفسي . انه في الحقيقة كان يفعل الشيء نفسه الذي كان يفعله السيّاح الذين كان يسخر منهم : كان يحاول ان يدخل في حياته بقايا زمن لم يكن زمنـه . انهم سيلصقون الصور على ألبوم وسيُرونها لاصدقائهم . امـــا هو فسيحمل في رأسه صوراً مع أساطيرهـــا ، وسيضعها في موضعها من متحفه الداخلي ؛ واما انا فلم يكن لي ألبوم ولا متحف : كنت التقي الجمال ، ولم اكن اجد مـــا

افعله به . وفي طريق العودة قلت لبابا :

– انني أحسدك .

– لماذا ؟

– ان هذه الأشياء تعني كثيراً بالنسبة لك .

– لا بالنسبة لك ؟

كانت هيئة الخيبة بادية عليه ، فقلت بحيوية :

– وبالنسبة لي ايضاً . ولكني لا احسن فهمها مثلك . فليست لي ثقافتك .

– اقرئي اذن هذا الكتاب الذي اعرتك اياه .

– سأقرأه .

وقلت في نفسي حتى بعد ان اقرأ ، فانه لن يقلقني التفكير بانهم قد وجدوا اسم « آتريه » على لوحات ، في كابادوس . انني لن استطيع بين ليلة وضحاها ان استسلم للهوس من اجل هذه الحكايات التي اجهل منها كل شيء . فلا بد من ان يكون المرء قد عاش طويلاً مع هوميروس والمسرحيين اليونانيين ، وان يكون قد سافر كثيراً ، ليستطيع ان يُقارن. انني أحسُّني اجنبية تجاه جميع هذه العصور الميتة وهي تسحقني .

وخرجت امرأة ترتدي السواد من احدى الحدائق واومأت لي . فاقتربت منها : فمدت لي يدها وهي تتمتم ؛ واعطيتها بضعة دراهم . وقلت لبابا :

– هل رأيت ؟

– من ؟ الشحاذة ؟

– انها ليست شحاذة . إنها فلاّحة ، وليست هي عجوزاً . وهذا فظيع ، بلد يستعطي فيه الفلاحون .

قال بابا :

– نعم . إن اليونان بلد فقير .

وحين كنا نتوقف في بعض القرى الصغيرة ، كنت غالباً ما انزعج للتناقض بين هذا القدر الكبير من الجمال وهذا القدر الكبير من البؤس وكان بابا قد اكّد لي يوماً ان بعض الطوائف الفقيرة حقاً ، في سردينيا وفي اليونان – يبلغون ،

بفضل جهلهم للمال ، قيماً فقدناها نحن وسعـــادة زاهدة . ولكن قرويي البيلوبونيز لم يكن يبدو عليهم انهم مسرورون على الاطلاق ، ولا النساء اللواتي كنّ يكسّرن الحصى في الطرق ، ولا الطفلات اللواتي كن يحملن دلاء للميـاه أثقل مما ينبغي . وكنت أتغاضى عن ذلك . فنحن لم نأت الى هنـــا لنشفق عليهم . ولكني كنت أود مع ذلك ان يقول لي بابا ابن تراه قد التقى باشخاص كان عَوَزُهم يُسعدهم .

وفي تيرانت وابيدور عاودني الانفعال الذي كان قد استولى عليّ في ميسين . وكنت مَرِحة جداً في تلك الليلة التي وصلنا فيها إلى اندريتسانا . كان الوقت متأخراً ، وكنا قد ركبنا السيارة في ضوء القمر على طريق متشققة ، عند حافة هاوية ؛ وكانا بابا يقود بهيئة استغراق ؛ وكنا معاً نحسّ بعض النعاس ، وكنا متعَبَيْن ، وكنا نحس نفسينا وحيديْن في العالم ، في ظلّ بيتنـا المتحرّك بينما كانت المصابيح تشق لنا درباً في الظلام .

وكان بابا قد قال لي :

ـ هناك فندق لطيف . ريفيّ ومعنيّ به .

وكانت الساعة الحادية عشرة حين توقفنا في ساحة القريـــة امام نُزل ذي مصاريع مغلقة . وقال لي :

ـ ليس هذا هو فندق السيد كريستوبولوس .

ـ فلنبحث عنه .

وتهنا على الاقدام في شوارع صغيرة خالية ؛ لم يكن ثمة ضوء في النوافـذ ، ولا فندق غير هذا الفندق . وطرق بابا البـــاب ، ونادى : فلم يتلقّ جواباً . وكان الطقس بارداً جداً ، فلم يكن طريفاً ان ننـام في السيارة . وعدنا نطرق الباب ونصيح . واقبل رجل من قلب الشارع وهو يعدو بشعر اسود وقميص ابيض باهر :

ـ هل انتما فرنسيان ؟

ـ نعم .

– لقد سمعتكما تناديان بالفرنسية . إن الغد هو يوم سوق ؛ فالفندق ممتلىء .
– انك تتكلم الفرنسية جيداً جداً .
– اوه : ليس جيداً . ولكني أحبّ فرنسا .

وكان يبتسم بسمةً ناصعة كقميصه . أن فندق السيد كريستوبولوس قد أقفل ، ولكنه سيبحث لنا عن سريرين . وتبعناه : كنت المغامرة تسحرني . انـه ذلك اللون من المغامرة الذي لا يحدث قطّ مع جان – شارل : فنحن نسافر ، ونتوقف في الساعة المحدّدة ، ويكون قد حجز الغرف مسبّقاً .

ودقّ اليوناني احـد الأبواب ، فظهرت امرأة على نافذة . نعم ، كانت موافقة على تأجيرنا غرفتين . وشكرنا دليلنا الذي قال لنا :

– أود كثيراً أن ألتقيكما صباح الغد ، لنتحدث عن بلدكما .
– بكل رضى . وأين يكون اللقاء ؟
– في مقهى على الساحة .
– اتفقنا . هل تناسبك الساعة التاسعة ؟
– اتفقنا .

وفي غرفة حمراء اللون ، تحت ركام من الأغطيـة نمت حتى ايقظتني يد بابا على كتفي .

– إن حظنا حسن ، فاليوم يوم سوق . انا لا اعرف ان كنت مثلي ، ولكني أعشق الأسواق .
– سأعشق هذا اليوم .

كانت الساحة مغطاة بنسوة يرتدين الثياب السوداء امـام سلال موضوعة على الأرض : بيض ، جبن الماعز ، ملفوف ، بعض الفراريج الهزيلة . وكان صديقنا ينتظرنا أمام المقهى . وكان الطقس بارداً : ولا بد ان البائعات كنّ مجلّدات . ودخلنا ؛ وكنت أموت جوعاً ، ولكن لم يكن ثمة طعام . وعزّاني عن ذلك نكهة القهوة السوداء الكثيفة .

وأخذ اليوناني يتحدث عن فرنسا ؛ لقـد كان شديد السعادة كلما التقى

بفرنسيين ! فما اعظم حظنا ان نعيش في بلد حرّ ! وقد كان يحب كثيراً مطالعة الكتب الفرنسية ، والجرائد الفرنسية . وقد خفض صوته وهو يتكلم ، بداعي العادة دون شك اكثر منه بداعي الحذر :

– في بلدكم لا يضعون أحداً في السجن بسبب آرائه السياسية .

وبدت على بابا هيئة متفهّمة أثارت دهشتي: صحيح انه يعرف أشياء كثيرة؛ وهو من شدة التواضع بحيث لا نحس ذلك . وسأل بصوت خافت :

– هل الاضطهاد على حاله من القسوة ؟

فهزّ اليوناني رأسه :

– إن سجن « ايجين » مليء بالشيوعيين . وليتك تعرف كيف يُعامَلون !

– أتكون في مثل فظاعة المعسكرات ؟

– في مثل فظاعتها .

وأضاف في شيء من التفخيم :

– ولكنهم لن يحطّموننا !

وسألنا عن الوضع في فرنسا ، فرماني بابا بنظرة متواطئة ، وأخذ يتحدث عن مصاعب الطبقة العمّالية وعن آمالها وعن انتصاراتها : فكأنما كان عضواً في الحزب الشيوعي . وكان ذلك يسلّيني ، ولكن كنت أحسّ تشنجّــات في معدتي . وقلت :

– انا ذاهبة لأرى ان كنت أجد شيئاً اشتريه .

وتسكّعت في الساحة . كان ثمة نساء يرتدين السواد ايضاً يناقشن البائعات: « سعادة زاهدة » : اليس هذا على الاطلاق ما كنت اقرأه على هـذه الوجوه المحمّرة بالبرد . كيف أمكن بابا ان ينخدع الى هذا الحدّ ، هو المعروف بتبصُّره؟ لا شكّ في انــه لم يَرَ هذا البلد إلا صيفاً : فهم بكل تأكيد اكثر مرحاً مع الشمس والفاكهة والزهور .

اشتريت بيضتين قلاهمـــا لي صاحب المقهى ، فقطعت إحداهما وأحسست برائحة فظيعة ؛ وفتحت الثانية ، فكانت هي ايضاً فاسدة . وذهب اليــوناني

فجاء بأخريين قلاهما : فكانتا كلتاهما فاسدتين .

– عجباً ! لقد وصلت لتوّها من الريف !

– إن السوق تقوم كل خمسة عشر يوماً . فاذا كان المرء محظوظاً وقع على بيض يعود عهده الى عشية اليوم السابق . وإلاّ ... فالأفضل ان تؤكل مسلوقة، وكان عليّ ان أنبّهكما الى ذلك .

– أفضّل ألا آكلهما على الاطلاق .

وبعد ذلك بقليل ، قلت لبابا ونحن على طريق معبد « باسا » :

– لم أكن أظنّ ان اليونان فقيرة الى هذا الحد .

– لقد هدمتها الحرب ، ولا سيما الحرب الأهلية .

– إن هذا الرجل لطيف . وقـــد مثلت دورك جيداً : فقد اقتنع باننا شيوعيان !

– إنني احترم شيوعيي هذا البلد ، لأنّ من الصحيح انهم يجازفون بدخول السجن ، بل يجازفون برؤوسهم .

– أكنت تعرف ان هناك مثل هذا العدد من المساجين السياسيين في اليونان ؟

– طبعاً . كان لي زميل لا يفتأ يقصفنا بالعرائض التي يطلب توقيعهـا ضد المعسكرات اليونانية .

– وكنت توقّع ؟

– نعم ، وقّعت مرة . انني مبدئياً لا أوقّع على شيء . لأن هذا اولاً غير مجدٍ على الاطلاق ؛ ثم إن وراء جميع هذه المبـــادرات ، التي هي في الظاهر انسانية ، مناورات سياسية دائماً .

وعدنا الى أثينا ، وألححت من أجل زيارة المدينـــة الحديثة . وسرنا حول ساحة أومونيا ، فالتقينا أشخاصاً كئيبين ، سيئي اللبـــاس ، ذوي روائح مشحمة . وكان بابا يقول لي : « ترين ان ليس ثمة ما يُرى » . وكنت أودّ ان اعرف ما الذي كان يحدث وراء هذه الوجوه المطفـــأة . وفي باريس أيضاً ، أجهل كل شيء عن الأشخاص الذين ألتقيهم ، ولكني هناك شديدة الانشغـال

بحيث لا أهتمّ بهم ؛ اما في أثينا ، فلم يكن لديّ شيء آخر أفعله .

وقلت :

ـ يجب ان نعرف بعض اليونانيين .

ـ لقد عرفت بعضهم ، ولم يكونوا يثيرون الاهتمام قط . والحق ان جميع الناس متشابهون في جميع البلدان ، في زمننا هذا .

ـ ومع ذلك ، فالمشكلات هنا ليست مشابهة لمشكلات فرنسا .

ـ انها مشكلات يومية بصورة مريعة ، هنا وهناك .

كان التناقض هنا أشدّ وضوحاً منه في باريس ـ في نظري على الأقل ـ بين بذخ الاحياء الرفيعة وكآبة الجماهير .

ـ اعتقد أن هذا البلد اشدّ مرحاً في الصيف .

فقال لي بابا في ظلّ من العتاب :

ـ إن اليونان ليست مرحة ؛ انها جميلة .

كانت لوحات « كوراي » جميلة ، بشفاهها الباسمة ، وعيونها الثابتة ، وهيئتها المرحة التي لا تخلو من بلاهة . لقد احببتها كثيراً . وكنت أعرف انني لن أنساها ابداً ، وكنت أود أن اغادر المتحف فوراً بعد ان شاهدتها . اما التماثيل الأخرى ، فلم أنجح في الاهتمام بها . كان تعبٌ كبير يستولي عليّ ، جسدياً وروحياً ؛ وكنت معجبة ببابا ، بقدرته على التركيز والفضول . سأتركه بعد يومين فلا أجد اني عرفته خيراً من قبل : هذه الفكرة التي كنت أحفظها منذ .. متى ؟ قد اخترقتني فجأة . ودخلنا الى قاعة ملآى بالأواني ، ورأيت ان هناك قاعات وقاعات متتابعة ، كلها ملآى بالأواني . وانزرع أبي امام واجهة ، وبدأ يعدّد لي العهود والاساليب وفروقها التفردية : المرحلة الهوميرية ، المرحلة السابقة للعهد الكلاسيكي ، أوانٍ ذات وجوه سوداء ، وذات وجوه حمراء ، وقاع أبيض ؛ وكان يشرح لي المشاهد المرسومة على جوانبها . كان وهو واقف امامي يبتعد الى آخر القاعات ذات الأرض الخشبية اللامعة ، أو انا التي كنت انقضّ في هاوية من اللامبالاة ؛ وعلى اي حال ، كان بيننا الآن مسافة غير

قابلة للعبور ، لأن فرقاً في اللون او نقشاً لورقة نخيل او رسماً لعصفور كانت في نظره موضوع دهشة او بهجة يردّه الى سعادات قديمة ، الى ماضيه كله . اما انا ، فكانت هذه الاواني تقتلني ضجراً ، واذ كنا نتقدم من واجهة الى واجهة ، كان سأمي يتفاقم حتى الضيق ، بينما كنت أفكّر : « لقد فاتني كل شيء » . وتوقّفت وانا أقول : « بتُّ لا أحتمل ! »

– بالفعل ، انك لا تتماسكين بعد للوقوف : وكان ينبغي لك ان تقولي ذلك قبل الآن !

وكان متأسفاً ، ولا شك في انه كان يفترض ضعفاً نسائياً يضعني فجأة على حافة الاغماء . وقادني الى الفندق حيث شربت بعض الشراب وانا احاول ان احدّثه عن « كوراي » . ولكنه كان يبدو لي خارج متناولي ، وكان يبدو خائباً .

وصباح اليوم التالي تركته يدخل وحده متحف الاكروبول .

– أفضّل ان ارى البارتينون مرة اخرى .

كان الهواء رقيقاً ؛ وكنت انظر الى السماء والمعبد فأحسّ إحساساً مرّاً بالهزيمة . كان ثمة مجموعات وازواج يستمعون الى الادلة باهتمام مهذّب او أنهم كانوا يمتنعون عن التثاؤب . وكانت اعلانات بارعة قد اقنعتهم انهم سيتذوقون هنا نشوات لا توصف ؛ ولن يجرؤ أحدٌ منهم لدى العودة على الاعتراف بأنه ظلّ بارداً كالثلج ؛ بل انهم سيحثون أصدقاءهم على الذهاب لمشاهدة أثينا ، وتستمرّ سلسلة الأكاذيب ، فتظل الصور الجميلة بمنجىً من المسّ على الرغم من جميع الحقائق . على اني أتمثّل من جديد هذين الزوجين الفتيين وهاتين المرأتين الأقلّ فتوة الذين كانوا يصعدون على مهل نحو المعبد ، والذين كانوا يتبادلون الحديث ، والابتسام ، ويقفون وينظرون بهيئة من السعادة الهادئة . لماذا لا أكون انا مثلهم ؟ لماذا اراني عاجزةً عن حب الأشياء التي اعرف انها جديرة بالحب ؟

ودخلت مارت الى الغرفة :

– لقد أعددت لك حساءً .

– لا اريد حساء .

– اقسري نفسك قليلاً .

وإرضاءً لهم ، التهمت لورانس الحساء . يومان مضيا من غير طعام . وبعد ذلك ؟ ما دامت غير جائعة . نظراتهم القلقة . وأفرغت الفنجان ، وأخذ قلبها يخفق ، وامتلأت عرَقاً . ولم يمهلها الوقت اكثر من ان تهرع الى الحمّام وتقيء . كما حدث امس الاول ، واليوم الذي سبقه . ايّ عزاء ! انها تود لو تستفرغ نفسها اكثر من ذلك ، ان تقيء نفسها كلها . وفركت فمها ، وارتمت على سريرها مرهقة ، مستردةً هدوءها .

قالت مارت :

– لم تحتفظي بالحساء ؟

– قلت لك اني لا أستطيع ان آكل .

– يجب ان تري طبيباً على الفور .

– لا أريد .

ماذا يستطيعه الطبيب ؟ وما جدوى ذلك ؟ اما وقد قاءت الآن ، فانها تشعر بالراحة . وهبط الظلام في نفسها ، فاستسلمت لليل . وفكّرت بقصة قرأتها : قصة خُلْدٍ يتلمّس طريقه عبر الممّرات الارضية ، حتى يخرج منها ويحس رطوبة الهواء ؛ ولكنه لا يحسن ان يخترع فتح عينيه. وروت الحكاية لنفسها على نحوٍ آخر : إن الخُلْد فيجحره الأرضي يخترع فتح عينيه ، ولكنه يرى ان كل شيء مظلم أسود . ليس لهذا ايّ معنى .

وجلس جان ـ شارل على سريرها ، آخذاً يدها :

ـ يا حبيبتي ، حاولي ان تقولي لي ما الذي تشكينه ؟ إن الدكتور لوبيل الذي تحدّث معه يعتقد أنك تعانين من معاكسة ضخمة ...

ـ كل شيء على ما يرام .

ـ لقد تحدّث عن فقدان الشهية عندك . وهو آتٍ عما قليل .

ـ لا !

ـ إذن اخرجي من هنا . فكّري . إن الانسان لا يفقد شهيته بلا سبب : جدي السبب .

فسحبت يدها :

ـ انني متعبة . اتركني .

وقالت لنفسها حين خرج : صحيح ان هناك مماكسات ، ولكنها ليست من الخطورة بحيث تمنعها من ان تنهض ومن ان تأكل . كنت أحس الحزن العميق في طائرة الكارافيل التي كانت تعود بي الى باريس . لم اكن قد نجحت في الفرار من سجني ، بل كنت أراه ينغلق عليّ فيما كانت الطائرة تغطس في الضباب .

وكان جان ـ شارل على المطار :

ـ هل قمت برحلة جميلة ؟

ـ رائعة !

لم تكن تكذب ، ولكنها لم تكن تقول الحقيقة . يا لهذه الكلمات كلها التي تقال ! كلمات ... في البيت ، استقبلتني الصغيرتان بصرخات فرحة ، وقفزات ، وقبلات وركام من الاسئلة . وكان في جميع الأواني زهور . وزعتُ اللعب والتنانير والوشاحات والألبومات والصور ، وبدأت اقصّ رحلة رائعة . ثم رتبت ثيابي في خزانتي . ولم يكن لديّ شعور بأني امثّل دور المرأة الشابّة التي تعود الى بيتها : بل كان الأمر سواء من ذلك . انني لم أكن كذلك شيئاً آخر . إن احجار الاكروبول لم تكن اكثر غربةً لي من هذا المنزل . وكاترين وحدها ...

ـ كيف حالها ؟

فقال لي جان ـ شارل :

ـ يخيّل إليّ انها على ما يرام . إن عالمة النفس تودّ لو تخابرينها تلفونياً باقرب فرصة ممكنة .

— اتفقنا .

وتحدّثت مع كاترين ؛ كانت بريجيت قد دعتهـا لقضاء عطلة الفصح معها ، في منزل كان يخصّ أسرتها ، قرب بحيرة « سيتون » ؛ فهل اسمح لهـا ؟ نعم . كانت تعرف جيداً اني سأقول نعم ، وكانت مسرورة . وهي متفاهمة تماماً مع السيدة « فروسار » : فقد كانت في بيتها ترسم وتلعب بمختلف اللعب ، وتصيب تسلية كبيرة .

ربما كان التنافس بين الأم والطبيبـة النفسية شيئاً كلاسيكياً : ولم أكن بعيدةً عن ذلك على كل حال . وكنت قد رأيت السيدة فروسار مرتـين ، بلا ودّ : كانت لطيفة ، ويبدو عليها انها ذات كفاءة ، وكانت تطرح اسئلة ذكية ، فلتسجّل الأجوبة وتصنفها بسرعة . وحين غادرتها ، في المقابلة الثانية ، كانت تعرف عن ابنتي مثل ما أعرف على وجه التقريب . وقبل ان أسافر الى اليونان تلفنت لها ، فلم تقل لي شيئاً : ذلك ان المعالجة كانت في اول أمرها . وتساءلت وأنا أدقّ بابها : « والآن ؟ » وكنت في موقف الدفـاع : مسلّحةً بالأسلاك الشائكة . ولم يَبْدُ أنها تنبّهت لذلك ، وشرحت لي الوضـع بصوتٍ باسم . وكان رأيها في مجمله أن كاترين تملك اتزاناً شعورياً طيّباً ؛ وهي تحبّني حباً هائلاً ، وكذلك لويز ؛ ولا تحبّ أباها بما فيه الكفاية ، فيجب ان يُطلب منـــه جهد إضافي من أجـل ذلك . وليس في عواطفهـــا لبريجيت ايّ تطرُّف . ولكنّ بريجيت ، لكونها أكبر منها سناً وأبكر نضجاً ، تعقد معها أحاديث تخلّف عندها الاضطراب .

— ولكنها كانت قد وعدتني بان تتنبّه وتكون حذرة ؛ وهي طفلة صادقة ومستقيمة جداً .

— ولكن ، يا سيدتي العزيزة ، كيف تريدين من فتـاة في الثانية عشرة ان َتزِنَ كلماتها تماماً ؟ ربما كانت تحتفظ لنفسها ببعض الأشياء ؛ وتروي أشيـاء اخرى تسيء كاترين تلقّيها . إنّ قلقها يبرز للعيان بوضوح في رسومها وتداعياتها الفكرية وأجوبتها على الأسئلة التجريبية .

والحقيقة اني كنت أعرف . لم أكن قد انتظرت السيدة فروسار لأفهم اني كنت قد طلبت المستحيل من بريجيت : إن الصداقة تفترض ان نتكاشف بقلب مفتوح . وقد كانت الطريقة الوحيدة لحماية كاترين من نفسها هي الحيلولة دون التقاء الطفلتين : وتلك كانت النتيجة التي انتهت اليها السيدة فروسار . ولم تكن القضية في هذه الحالة قضية لون من الوان الهوس الصبيانيــة التي لا تقاوم والتي تشكـّل مواجهتها بقسوة خطراً اكيداً . فاذا باعدنا بين لقائهما في مهارة ، فان كاترين لن تضطرب لذلك . وكان المفروض ان أتدبّر الأمر بحيث يقلّ اجتماعهما من الآن حتى العطلة الصيفية ، وبحيث لا تكونان بعدُ في العام القادم في الصف نفسه . ومن المستحسن ايضاً ان أجد لابنتي صديقات اخريات اكثر طفولة من بريجيت .

وقال لي جان – شارل بصوت انتصار :

– هل ترين ؟ ! لقد كنت على حقّ . فهذه الصغيرة هي التي حرفت كاترين.

وما زلت أسمع ذلك الصوت ، وأتذكـّر بريجيت ، والدّبوس عالق في ثنية تنورتها : « صباح الخير يا سيدتي » ، وتضيق العقدة في حنجرتي . إن الصداقة لشيء ثمين . لو كانت لي صديقة لحدّثتها بدلاً من أن أبقى جامدة واهنة .

– اولاً سنحتفظ بها في عيد الفصح .

– ستكون حزينة .

– لن تكون كذلك اذا عرضنا عليها ما هو أشدّ اغراءً .

وتحمّس جان – شارل : إن كاترين مسحورةٌ بالصور التي جلبتهـــا من اليونان ، حسناً ، فسنأخذها الى روما مع لويز . وعند العودة ، يجب ان توجد لها مشاغل تستغرقهـــا : رياضة او رقص ، او فروسية ! تلك كانت فكرة عظيمة ، حتى من الناحية الشعورية . استبدال صديقة بحصان ! وناقشت الأمر . ولكن جان – شارل كان مصمّماً . روما ودروس في الفروسية .

وبدت كاترين في هيئة متململة حين تحدّثت عن رحلة الى رومـــا : « لقد وعدتُ بريجيت ، وهذا ما سوف يشقّ عليها . »

— سوف تفهم . رحلة الى روما : هذا ما لا يحدث كل يوم . ألست راغبة في ذلك ؟

— كنت أفضّل الذهاب الى بيت بريجيت .

وكانت حزينة . ولكن من المؤكّد انها ستمتلىء حماساً يوم تصل إلى روما. ولن تفكّر أبداً بصديقتها . قليل من الفطنة والمهارة ، وستكون في العام القادم قد نسيتها تماماً .

وتقلّصت حنجرة لورانس . لم يكن لجان – شارل أن يناقش قضية كاترين، في اليوم التالي ، بصورة علنية . إن ذلك خيانة وانتهاك . اية رومانتيكية ! ولكن نوعاً من الخجل كان يخنقها ، كما لو انها كانت كاترين وفاجأتهم في الحديث. كانوا جميعاً يتناولون العشاء في منزل دومينيك : ابوها ، ومارت ، وهوبير ، وجان – شارل وهي نفسها . (كانت امي قد اخذت ترتاح للاجتماعات العائلية .. ويا للطافة بابا ومجاملته لها !)

لقد قال :

— روت لي اختي حالة مشابهة تماماً . ففي الصف الرابع ارتبطت واحدة من افضل طالباتها مع زميلة اكبر منها سناً وكانت أمها من مدغشقر . فاذا برؤيتها كلها للعالم تتغيّر ، وكذلك شخصيتها .

فسألت :

— هل فرّقوا بينهما ؟

— هذا ما لا أعرفه .

فقالت دومينيك :

— حين نستشير اخصائياً ، فيبدو لي أنّ علينا ان نتبع نصائحه .

والتفتت إلى بابا وسألته بلهجة مراعية ، كما لو انها كانت تعلّق اهمية كبيرة على رأيه :

— أليس كذلك ؟

وكنت أفهم ان تكون متأثرة بعنايته. فهي شديدة الحاجة الى الاحترام

والصداقة . غير ان ما كان يسوءني هو ان يقع في شرك غنجها ودلالها .

– هذا يبدو منطقياً .

ذلك الصوت المتردّد . لقد كان مع ذلك ، في « دلف » ، حين كنا ننظر الى الفتاة المجنونة بالموسيقى ترقص – كان من رأيي .

وقالت مارت :

– في رأيي ان المشكلة قائمة في مكان آخر .

وكرّرت ان عالماً بلا رب ، بالنسبة لطفل ، كان غير قابل لأن يُعاش فيه . ولم نكن على حق في أن نحرم كاترين من تعزيات الدين . اما هوبير فكان يأكل في صمت . ولا بد انه كان يدبّر مبادلات معذبة لسلاسل المفاتيح ، وكانت هذه آخر هواياته . وقلت :

– إن من الهامّ على اي حال ان يكون لفتاة صغيرة صديقة .

فأجابتني دومينيك :

– لقد كنتِ انت في غنى عن هذا تماماً .

– ليس الى الحد الذي تظنّين .

فقال جان – شارل :

– سنجد لها صديقة اخرى . اما هذه فلا تناسبها ما دامت تبكي ، وتشعر بالكوابيس ولا تتابع دروسها كما ينبغي ، وما دامت السيدة فروسار تجدها وقد انحرفت قليلاً عن محورها .

– يجب مساعدتها لاستعادة توازنها . ولكن لا بفصلها عن بريجيت .

– اسمع يا بابا . لقد كنت في دلف تقول انه من الطبيعي ان يُحس المرء باضطراب حين يبدأ باكتشاف العالم .

– هناك اشياء طبيعية من الافضل تجنّبها ؛ فمن الطبيعي ان نصرخ اذا أحرقنا يدنا ! فالأفضل الا نحرق يدنا . واذا كانت عالمة النفس تجدها قد انحرفت عن محورها ...

– ولكنك لا تؤمن بعلماء النفس !

واحسست ان صوتي كان يعلو . ورماني جان – شارل بنظرة مستاءة :

– اسمعي . ما دامت كاترين تقبل الذهاب معنا من غير ان تجعل من هذا مأساة ، فلا تجعلي انت منها مأساة .

– انها لا تجعل من ذلك مأساة ؟

ـ على الاطلاق .

ـ اذن !

قالها ابوها ودومنيك معاً . اذن ؟ اما هوبير فقد هزّ رأسه بهيئة مرافقة . واجبرت لورانس نفسها على الطعام ، ولكنها انها احست آنذاك بأول تشنج . كانت تعرف انها مهزومة . ان المرء لا يكون على حق في وجه جميع الناس ؛ وهي لم تكن يوماً من الترفّع بحيث تعتقد هذا . (لقد كان هناك غاليله وباستور وآخرون كانت تذكرهم لنا الآنسة هوشيه ، ولكنني لا أعتبر نفسي غاليله) وإذن ، ففي عيد الفصح – وستكون بكل تأكيد قد شفيت ، فالقضية قضية ايام ، فالانسان يشمئز من الطعام بضعة أيام ، ثم ينتهي الأمر بالضرورة إلى التطامن والانهيار ـ سيأخذان كاترين الى روما . وتتشنج معدة لورانس . لعلّها لن تستطيع ان تأكل قبل مضيّ وقت طويل . وستقول عالمة النفس انها تتمارض عن قصد لأنها لا تريد ان تأخذ كاترين . كلام فارغ . لو انها لم تكن تريد حقاً ، لرفضت ، ولقاتلت من أجل ذلك . وسيكونون جميعاً مجبرين على الخضوع .

جميعاً . لأنهم جميعاً ضدّها . ومرة أخرى تنقضّ عليها الصورة التي تدفعها بأكبر قدر من العنف ، والتي تنبثق بمجرّد أن يتراخى نشاطها وتنبهها : جان ـ شارل وبابا ودومينيك وهم يضحكون كما لو كانوا على إعلان اميركي يمتدح نتاجاً من وجبة عصيدة . انهم متصالحون ، مستسلمون معاً لمباهج الحياة العائلية . والاختلافات التي كانت تبدو جوهرية لم تكن لها مثل هذه الأهمية بعد كل حساب . إنها وحدها المختلفة ؛ مطرّحة ؛ غير قادرة على الحياة ؛ غير قادرة على الحبّ . وبكلتا يديها تتشبّث بغطائها . ها قد اقبل عليها ما تخشاه اكثر

من الموت . لحظة من اللحظات التي ينهار فيها كل شيء ؛ إن جسمها من حجر ، وهي تودّ لو تئنّ وتهدر ؛ ولكن ليس للحجر من صوت قطّ ؛ ولا دموع .

انني لم أرد أن أصدق دومينيك ؛ كان ذلك بعد ثلاثة أيام من ذلك العشاء ، وبعد ثمانية ايام من عودتنا من اليونان . لقد قالت لي :

ـ تصوّري اننا نفكر في العودة الى الحياة المشتركة ، ابوك وأنا .

ـ ماذا ؟ انت وبابا ؟

ـ أيدهشك هذا إلى هذا الحدّ ؟ ولماذا ؟ إن لدينا في الحقيقة اشياء كثيرة مشتركة . لدينا اولاً ماضٍ برمته ؛ ثم انت ومارت واولادكما .

ـ ولكن ذوقيكما مختلفان كل الاختلاف .

ـ كانا كذلك ولكننا تغيرنا قليلاً ونحن نشيخ .

كنت اقول لنفسي : « بعض الهدوء » . وكان في غرفة الاستقبال زهور ربيعية من سوسن وغيره . أهي هدايا من بابا ام انها كانت تغيّر اسلوبها ؟ مَن كانت تقلد ؟ المرأة التي كانت تتمنى أن تصبحها ؟ كانت تتكلم . وكنت اترك الكلمات تنزلق عليّ وأنا ما زلت امتنع عن تصديقها : كانت غالباً ما تروي لنفسها الحكايات . كانت بحاجة الى الأمن والمحبة والاحترام . وكان هو يكنّ لها من ذلك الكثير . كان يتحقق من انه كان قد أساء الحكم عليها ، وان حبها للناس والمجتمع ، ومطامحها ، انما كانت نوعاً من الحيوية . والحق انه كان بحاجة إلى من هو حي الى جانبه . كان يحس نفسه وحيداً ، وكان يعاني السأم ؛ إن الكتب والموسيقى والثقافة أشياء جميلة جداً ، ولكن هذا لا يملأه حياة ، كان لا بد من الاعتراف بأنه كان ما يزال جذاباً جداً . ثم انه كان قد تطور . كان يدرك ان النزعة السلبية شيء عقيم . وكانت قد اقترحت عليه ، بالنظر الى معرفتها للحياة البرلمانية ، ان يُشارك في مناقشة بالاذاعة : « انك لا تتصورين السرور الذي خلفه هذا في نفسي » . وكان الصوت يسيل ، متساوياً ، مَرْضياً ، في دفء غرفة الاستقبال التي كانت قد ترددت فيها صرخات تثير الاشمئزاز . « بل ستتحمّل ، ستتحمّل » لقد كان جيلبير على حق . اننا نصرخ ونبكي

وتتشنج كما لو انه كان في الحياة ما هو جدير بهذا الصراخ وهذه الدموع وهذه الألوان من الاضطراب .

وليس هذا حق صحيحاً . ليس ثمة ما هو غير قابل للاصلاح لأنه ليس ما هو ثمة هام . فلماذا لا يبقى الانسان طوال حياته في السرير ؟

وقلت :

ـ ولكن عجباً ! إنك تجدين حياة بابا باهتة الى حد بعيد !

انني لم أكن أفهم . إن دومينيك لم تكن فجأة قد غيّرت رأيها ببابا ولم تكن قد اقتنعت برؤيته للعالم ، ولا استسلمت لمشاركته بما كانت تسميه بتوسطه . وقالت بحيوية :

ـ آه سوف أحتفظ برؤيتي للعالم . ونحن متفقان بهذا الصدد كل الاتفاق ؛ فلكل منا شواغله ووسطه .

ـ نوع من التعايش السلمي ؟

ـ اذا اردت ذلك .

ـ لماذا إذن لا تكتفيان بان تتقابلا بين حين وحين ؟

فقالت دومينيك :

ـ انت بلا ريب لا تعرفين العالم ، ولا تدركين ما فيه !

ولزمت الصمت لحظة ؛ وكان واضحاً ان ما تجيله في رأسها لم يكن ممتعاً لذيذاً .

ـ لقد سبق ان قلت لك إن امرأة بلا رجل هي ، اجتماعياً ، كائن بلا طبقة ؛ هذا ملتبس . أنا أعرف انهم بدأوا ينسبون لي عشّاقاً ؛ والواقع ان هناك من يعرّض نفسه لذلك .

فقلت :

ـ ولِمَ لا ؟ لقد كان بامكانك ان تختاري رجلاً ألمع .

وشدّدت على الكلمة الأخيرة .

ـ لامع ؟ ليس ثمة من هو لامع اذا قورن بجيلبير لو فعلت ذلك لبدا عليّ

اني أكتفي ببديل . إن أباك هو شيء مختلف تماماً .

واكتسى وجهها بتعبير حالم كان ينسجم مع السوسن وزهور الربيع :

ـ زوجان يلتقيان من جديد بعد فراق طويل ليواجها الشيخوخة معاً ـ ربما دهش الناس لذلك ، ولكنهم ، لن يقهقهوا ساخرين .

كنت أقلّ منها تيقناً من ذلك ؛ اما الآن ، فقد فهمت . الأمان والاحترام: هذا ما تحتاج اليه أولاً . "إن علاقات جديدة ، لو قامت ، ستنحطّ بها الى مستوى النساء السهلات ؛ والعثور على زوج ليس يسيراً إلى هذا الحد . وكنت أتمثّل الشخصية التي ستبنيها لنفسها : امرأة واصلة ، امرأة ناجحة ولكنها تنفصل عن الوان الخفة ، وتؤثر عليها مباهج أرصن وأصعب وأكثر صميمية .

ولكن هل كان بابا على وفاق ؟ لقد مرّت لورانس في المساء نفسه لترى أباها . في ذلك المنزل ، منزل رجل وحيد كان يروق لها كثيراً بجرائده وكتبه المبعثرة ، ورائحته القديمة . وسألته على الفور تغريباً وهي تقتسر الابتسام :

ـ أصحيح ما ترويه دومينيك من انكما ستعودان الى الحياة المشتركة ؟

ـ نعم ، على ما قد يكون في ذلك مما يثير دهشتك !

وكان يبدو عليه بعض الارتباك : كان يتذكّر ما سبق ان قاله عن دومينيك .

ـ نعم ، اعترف ان هذا يدهشني . لقد كنتَ شديد الحرص على وحدتك .

ـ لست مجبراً على أن أفقدها اذا أقمت في بيت أمّك . إن منزلها كبير جداً . ومن كان في مثل سننا محتاج طبعاً الى الاستقلال .

وقالت :

ـ اعتقد أنّ هذه فكرة طيبة .

ـ أظن ذلك . انني أعيش منطوياً على نفسي أكثر مما ينبغي . فيجب على اي حال الاحتفاظ باتصالنا بالعالم . وانت تعلمين ان دومينيك قد نضجت ؛ إنها تفهمني أكثر جداً من الماضي .

وكانا قد تحدّثا في أمور كثيرة وابتعثا ذكريات رحلتهما الى اليونان .

وفي المساء كانت قد قاءت عشاءها ، فلم تنهض من سريرها في اليوم التالي ، ولا في اليوم الذي تلاه ، وكانت مصعوقـــة بجريٍ عنيفٍ للصور والكلمات التي كانت تثب في رأسها متصارعة كأنها خناجر ماليزية في درج مقفل (فاذا 'فتح' كان كل شيء منتظماً هادئاً) وفتحت الدرج . إن كل ما في الأمر انها مصـابةٌ بالغيرة . لقد صفّى اوديب تصفية رديئة ، فظلّت أمّي منافستي . الكترا ، أغاممنون . أمن أجل هذا أثرت فيّ ميسين كلّ هذا التأثير ؟ لا ، لا . ترّهات . لقد كانت ميسين رائعة ، وجمالها هو الذي أثّر فيّ . وأغلق الدرج من جديد ، فعادت الخناجر تتصارع . اني مصابة بالغـيرة ولكن خصوصاً ، خصوصاً ... وجعلت تتنفس بأسرع مما ينبغي ، فأخذت تلهث . لم يكن صحيحاً إذن انـه كان يملك الحكمة والفرح وان اشعاعه الخاص كان يكفيه ! ذلك السرّ الذي كانت تأخذ على نفسها انها لم تحسِن اكتشافه ربما كان بعد كل حساب غير موجود أصلاً . إنه لم يكن موجوداً : فهي تعرف ذلك منذ زيارة اليونان . لقد كنت « خائبة » ؛ كانت الكلمة تطعنها .

وشدّت المنديل على اسنانها كما لتحجب الصرخة التي كانت غير قـادرة على اطلاقها لقد خاب املي وأنا على حق في ذلك . « انـك لا تتصورين السرور الذي حدث له من جرّاء ذلك ! » . وهو : « انها تفهمني افضل من السابق » . لقد أحس نفسه 'مملّقاً' . « 'مملّق' » هو الذي كان ينظر الى العـالم من عل بلا مبالاة باسمة ، وهو الذي كان يعرف لا جدوى كل شيء ، وقد وجد الصفـــاء والهدوء فيما وراء اليأس . هو الذي لم يكن ليتزعزع ، سيتحدث في هذه الاذاعة التي كان يتهمهـا بالكذب والعبودية . انـه لم يكن من نوع آخر . ولو تحدثتُ في ذلك الى مونا ، لقالت لي : « ماذا تريدين ! ؟ انهما قطرتا ماء » .

وراودها النعاس ، وهي مرهقة . وحين فتحت عينيها ، كان جان – شارل حاضراً .

– يا حبيبتي . لا بدّ اطلاقاً من ان تقبلي رؤية الطبيب .

– لأي شيء ؟

– سيتحدث معك ، وسيساعدك على فهم ما يجري معك .

فانتفضت :

– كلا . على الاطلاق . لن ادعهم يتلاعبون بي .

وصاحت :

– كلا ! كلا !

– هدئي روعك !

وسقطت ثانية على وسادتها . سيقسرونها على ان تأكل ، وسيجعلونها تبتلع كل شيء ، كل ماذا ؟ كل ما تقيئه ، حياتها ، حياة الآخرين بغرامياتهم المزيفة ، وقصصهم المالية ، وأكاذيبهم . انهم سيشفونها من رفوضهـا ، من يأسها . لا . لماذا ؟ هذا الخلد الذي يفتح عينيه ويرى ان كل شيء مظلم . ماذا يجديه ذلك ؟ الأفضل ان يغلق عينيه من جديد . وكاترين ؟ أينبغي اغماض جفنيها ؟ « كلا » . لقد صاحت بصوت مرتفع . لا كاترين . لن اسمح بان يفعلوا بها ما فعلوا بي . ماذا فعلوا بي ؟ هذه المرأة التي لا تحب أحداً ، ولا تحس جمالات العالم ، بل هي عاجزة حتى عن البكاء ، هذه المرأة التي اقيؤها . اما كاترين: فيجب على العكس ان افتح عينيها فوراً ، فلعل شعاعاً من نور يتسرّب اليها ولعلها تنجو من ذلك ... مِمّ ؟ من هذا الليل . من الجهل . من اللامبالاة . كاترين ... وانتصبت فجأة :

– ان يفعلوا بها ما فعلوا بي .

– هدّئي روعك .

وأخذ جان – شارل معصمها ، وكان بصره يترنح كما لو انـه كان يريد النجدة ؛ كان اي امر طارىء يكفي لبث الذعر في نفسه ، هو المعروف بتسلطه وشدة ثقته بانه على حق

– انني لن اهـدأ . لا اريد طبيباً . انكم انتم الذين تجعلونني مريضـــة . وسأشفى من تلقاء نفسي لأنني ان استسلم لكم . لن اخضع لكم بصدد كاترين . لقد كنت أنا خاسرة ، مضلـّلـة . انني كذلك . وسأبقى كذلك . امـا هي ، فلن يشوّهوها . انني لا أريد ان تُحرَم من صديقتها . أريد ان تقضي عطلتهـا

في بيت بريجيت . وهي لن ترى عالمة النفس تلك .

وقذفت لورانس الغطاء عنها ، ثم نهضت ، فارتدت ثوباً طويـــلاً ونظرُ جان – شارل المذعور مسمّر عليها .

– لا تستدع الطبيب . فأنا لا اهذي. كل ما هنالك انني اقول ما أعتقد به . اوه . لا تكن لك هذه الهيئة !

– انني لا افهم شيئاً مما تروين .

وبذلت لورانس جهداً واتخذت لهجة متعقلة .

– الامر بسيط . انني أنا التي اهتم بكاترين . أمـــا أنت فتتدخل بين الحين والحين . ولكنني أنا التي اربيها ، وعليّ انا تقع مسؤولية اتخـــاذ القرارات . وأنا اتخذها . ان تربية طفلة لا تعني ان نجعل منها صورة جميلة .

كان صوت لورانس يعلو بالرغم منهـا . وكانت تتكلم وتتكلم ولا تدري بالضبط ما تقول ، ما يهمّ ؟ المهم ان تصرخ باعلى مما يصرخ جان – شارل وجميع الآخرين ، وان تحيلهم الى الصمت . وكان قلبها يخفق شديداً وعيناها تحترقان .

– لقد اتخذت قراراتي ، ولن استسلم .

وكان جان – شارل يبدو اكثر فأكثر مذهولاً ؛ وقد تمتم بلهجة مهدّئة :

– لماذا لم تقولي لي ذلك كله من قبل ؟ ما كنت بحـــاجة الى ان تصبحي مريضة ولم أكن اعرف ان قلبك يهتم هذا الاهتمام كله بهذه الحكاية .

– قلبي ، نعم ؛ ربما لم يكن لي من قلب بعد . ولكن هذه الحكاية يهتم بها قلبي .

ونظرت اليه ، في عينيه مجابهة ، فأدار رأسه :

– كان عليك أن تحدّثيني من قبل .

– ربما . وعلى كل حال ، انتهى الأمر الآن .

وكان جان – شارل عنيداً ؛ ولكن هذه الصداقـة بين كاترين وبريجيت لم يكن يحملها حقاً على محمل الجد ؛ ان هذه القضية كلها هي أكثر طفولية من ان تعنيه حقاً . ولم يكن الامر يسيراً منذ خمسة أعوام ، وهـو غير راغب في أن

المحطّم من جديد . فاذا صمدتُ ربحتُ .

ـ اذا كنت تريد الحرب ، فلتكن الحرب .

فهزّ كتفيه :

ـ الحرب بيننا ؟ من تظنّين انك تكلمين ؟

ـ لا أدري . ان هذا متوقف عليك .

فقال جان شارل :

ـ انني لم اعاكسك قط .

وفكر :

ـ من الصحيح انك تهتمّين أكثر مني كثيراً بـكاترين ؛ وعليك انت في آخر المطاف ان تقرري . وأنا لم أدّعِ عكس ذلك قط .

وأضاف في لهجة استياء :

ـ كان كل شيء يكون اسهل لو انك أوضحت موقفك منذ البدء .

وانتزعت بسمة :

ـ كنتُ على خطأ . وأنا أيضاً لا أحب أن أعاكسك .

وصمتا . ثم استطردت :

ـ لقد اتفقنا اذن ؟. ان كاترين ستقضي عطلتها في منزل بريجيت ؟

ـ اذا كان هذا ما تريدين ، فليكن .

ـ نعم .

ومرّحت لورانس شعرها وأعادت تزيين وجهها بعض الشيء . وفكّرت وهي تنظر الى صورتها ، وكانت ممتقعة بعض الشيء ، مشدودة الملامح : لقد تمت اللعبة بالنسبة الي . اما الطفلتان فسيكون لهما حظها : ايّ حظّ ؟ هـذا ما لا تعرفه كذلك .

مؤلفات سيمون دوبوفوار

		ق ل.
المثقفون (رواية بجزئين)	ترجمة جورج طرابيشي	١٤٠٠
انا وسارتر والحياة	ترجمة عايدة م. ادريس	٤٠٠
مغامرة الانسان	ترجمة جورج طرابيشي	١٤٠
الوجودية وحكمة الشعوب	« « «	١٧٥
نحو اخلاق وجودية	« « «	٢٥٠
قوة الاشياء (جزآن)	ترجمة عايدة م. ادريس	١١٠٠

منشورات دار الآداب — بيروت

روايات مترجمة

من منشورات دار الآداب – بيروت

● ابك يا بلدي الحبيب	لآلان بيتون	٤٥٠
● هل تحبين برامس	لفرانسواز ساغان	١٥٠
● زوربا	لكازانتزاكي	٥٠٠
● مدام بوفاري	لفلوبير	٦٥٠
● ماريانا (مسرحية)	للوركا	٢٠٠
● هيروشيما حبيبي (مسرحية)	لمارغريت دورا	٣٠٠



هذه الرواية ...

بعد سنوات طويلة ، تعود الكاتبة الفرنسية الشهيرة سيمون دو بوفوار بروايتها هذه « **الصور الجميلة** » التى لقيت ولا تزال تلقى ترحيباً كبيراً من الصحافة الادبية في الغرب .

وقد قالت عنها المؤلفة نفسها : « انها كتاب عن الحقيقة ، دفعني الى كتابتها الاشمئزاز الكبير الذي أحسّ به ازاء عالم الكذب الذي يحيط بنا : الصحافة ، التلفزيون ، الاعلانات ، الموضة التي تطلق شعارات وبيانات واوهاماً يتبنّاها الناس فتقتل العالم الحقيقي »

انها رواية جذّابة تفضح فيها سيمون دو بوفوار المدنية القائمة على الوهم والتضليل كما تفضح البورجوازية ، عبر مجموعة من الابطال ينتمون الى طبقة « تعيش في الزيف والكذب ، ولا تستطيع او لا تريد ان تكشف الصدق تحت الاصطناع » .

والقارىء يتابع بشغف واهتمام ابطال الرواية : لورانس زوجة جان ـ شارل ، وامها دومينيك ، وطفلتها كاترين التي وصفت بأنها « **وجودية صغيرة** » وسواهم وهم يتحركون في إطار من الاخلاص والخيانة ، والحقيقة والزيف ، والحبّ والكراهية ... ولا شك في ان كاترين الطفلة ستثير اهتماماً خاصاً بما تعانيه من مأساة البؤس والجوع في العالم ، وبسؤالها الساذج العميق : « لماذا نحن موجودون ؟ » .

رواية لا تستطيع ان تتركها قبل ان تنهي قراءتها ...

الثمن : ٣٥٠ ق. ل ـ ٤٥٠ ق. س ـ ٦٠٠ مليم